آكام الحروف

مقالات في العلم والدعوة والمنهج

أ. د. عُمَر بْن عَبْد الله بْن مُحَمَّد المُقْبِل

الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

العبيكان
Obeikan

© عمر بن عبدالله بن محمد المقبل، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المقبل، عمر بن عبدالله بن محمد.
آكام الحروف./ عمر بن عبدالله بن محمد المقبل
-ط١.- المذنب، ١٤٣٩هـ.
١٨٢ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.
ردمك: ١-٧١٥١-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١- الدعوة الإسلامية. أ.العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣٩/٧٥٣١

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية - الرياض
طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة
هاتف: ٩٦٦١١٤٨٠٨٦٥٤+، فاكس: ٩٦٦١١٤٨٠٨٠٩٥+
ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧
www.obeikanretail.com

العبيكان للنشر Obeikan Publishing
obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية
سوق amazon إحدى شركات
وادي wadi

للحصول على كتبنا الصوتية
Kitab Sawti www.kitabsawti.com
دار ضاد للنشر الإلكتروني WWW.DHAD.SA

للحصول على كتبنا الإلكترونية
أجهزة amazon kindle
Google Play

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

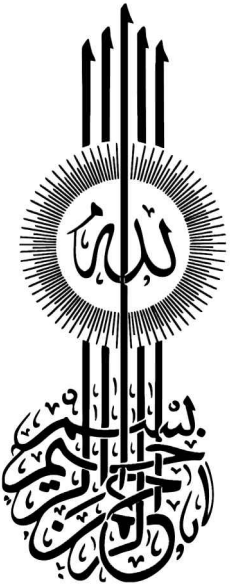
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيسرني أن أقدم للقراء الكرام (آكام الحروف)، وهي عبارة عن مجموعة من المقالات، في موضوعات مختلفة، ومسارات شتى، تجمعها مظلة العلم والدعوة والمنهج؛ لتَنْضَمّ إلى شقيقاتها التي صدرت سابقًا في جزءين حَمَلا اسم (مرافئ)، و(أفياء).

ولا يخفى أن طبيعة المقالات لا تحتمل التوسع، فالغرض منها لفت النظر إلى فكرة، سواء بالتنويه عنها، أو الإشارة إلى ضرورة وضع الحلول، وربما المشاركة بشيء من ذلك، وقد تكون بعض الموضوعات مكتملة الفكرة والغرض.

وإني لأرجو من الله تعالى أن ينفع بها، وألا يحرمني إخواني وأخواتي من القراء الكرام من تسديد وتقويم، فبتواصلهم أسعد، وأرتقي.

عمر بن عبدالله المقبل

Omar1427@gmail.com

جوال (تليغرام): 0555154491

ذكّرونا بمثل هؤلاء الكلمات

٢٥/ ١١/ ١٤٣٦هـ

جرت العادةُ في رحلة الحــج أن يتعاهد بعضُ طلاب العلم إخوانَهم الحجاجَ بكلماتٍ وعظية تذكيريــة، والملاحَظ أن عددًا غير قليلٍ من هذه الكلمات تنحو منحى الوعظ بمعناه المشــهور والخاص، إما ترغيبًا بجنة أو ترهيبًا من نار، أو ما يَسبِق ذلك من حديثٍ عن الحياة البرزخية، وهي موضوعــاتٌ مهمة بلا ريــب، وينبغي تَعاهُدُ النــاسِ بها في رحلة الحج وغيرها، لكن ألا توافقني -أخــي القارئ- أن ثمةَ موضوعات هي من صميم ما تُوعظُ به القلوبُ، بــل هي من أكبر وأعظم الموضوعات التي أبْدَى الرســلُ، وأعادوا فيها كما يخبرنا القرآن الكريم، وكما صحّ عنهم، وعلى رأسهم نبينا وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟

والذي حملني على هذا التساؤل أنني في رحلة الحج هذا العام ١٤٣٦هـ لفت نظري حديثُ من تشرفتُ برفقتهــم في كلماتهم التي يتعاهدون بها أصحابَهم أنها جميعًا تدور حولَ القضايا الكبرى والأساسية، التي عليها مدارُ صلاحِ القلب، فأحدهــم وعَظَنا عن (التوكل) وحاجة العبد له في كل حال، وخصوصًا وهو يمضي في هذه المناســك، فلربما دفعه ما يجده

من رغبة في الطاعة إلى نسيانِ التوكلِ وطلبِ الحول والقوة من واهِبِها سبحانه.

وآخَرُ وعظَنَا موعظةً بليغة عن (الصدق) وحقيقته، وعن شيءٍ من معاني الصدّيقيَّة، وأنّ تفاوتَ منازلِ العباد عند الله بمقدار ما لديهم من الصدق، في حديثٍ إيماني ماتع.

وثالثٌ وعَظَنا عن معاني (الحمْد) وبعضِ فضائله التي قد يغفل عنها الإنسانُ مع يُسرها وسهولتها، واستحقاقِ الله تعالى لهذا الأمر في كل لحظة، في إشارات بديعةٍ إلى حاجةِ العبد لحمد ربّه، والثناء عليه، وأثر ذلك في قلبه وانشراح صدره، وراحة باله.

ورابعٌ وعَظَنا في موضوع (ذِكر الله) وحضوره في مناسك الحجّ بالذات، وأثرِ هذا الذكر في إخباتِ العبدِ وانكسارِه إذا كان ذِكرًا اجتمع عليه القلبُ واللسانُ، وهكذا استمرت بقيةُ الكلمات والمواعظ، التي كان لها وقْعٌ حسنٌ على السامعين.

إن مِن طلاب العلم -بلْه عامّة الناس- مَن يقصّر في التذكير بهذه الموضوعات الأصيلة والمهمة! إما بسبب الغفلة، أو بسبب ظنّه أنها من الأمور الواضحة البيّنة للناس؛ فلا يحتاجون إلى التنبيه عليها أو التذكير بها! والواقعُ أن هذا ليس بدقيق، فالواقع يشهد بقلّة طَرْقِ هذه الموضوعات مقارنةً بما أشرتُ إليه، ومَنْ تأمل كتابَ الله وسنةَ نبيه ﷺ فسيجد الحفاوةَ بهذه المعاني أكثرَ مما سواها؛ ولعل السّر في ذلك: أن القلبَ إذا تأثر، وصلحَ بهذا النوع من الوعظ، واستقام؛ صار تعبّده لله، وحبّه لمولاه، وخوفُه منه مبنيًّا على علمٍ وفهمٍ لأسماء الله وصفاته، وما ينبغي له

جَلَّجَلَالُهُ وتقدست أسماؤه، وليس تأثّره لمجرد موعظة عابرةٍ تذرف معها العين، ويَوْجل منها القلب، بسبب قوة أسلوب الواعظ، أو لغير ذلك من الأسباب.

تأمّل في وعظِ نوحٍ قَوْمَه بتوقير الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح:١٣-١٤]، ولما وعظ شعيبٌ قومَه، ونوّع عليهم الخطاب، قالوا له: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فأجابهم إجابة العبد المعظّم لمولاه وخالقه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[هود:٩٢]، وأمثال هذه المواعظ العظيمة، التي تسكب في القلبِ الإجلالَ لذي العظمة والجلال.

إنها دعوةٌ لنفسي ولإخواني للنظر في أولويات موضوعات الوعظ التي ينبغي طرقها، وألا ننسى أن المقصد الأعظم من بعثة الرسل وإنزال الكتب، هو تعبيد هذه القلوب لرب العالمين، وأن أصح وأعظم الطرق للوصول إلى ذلك هو سلوك طريقة الأنبياء والرسل، بطَرق هذه الموضوعات، فالقلوب إذا صلحت بهذه المعاني؛ صار وصولها إلى الله أقرب وأقوى، والله المستعان.

أُم مِلْدَم... وزيارة نهاية العام

١/ ١٢/ ١٤٣٦هـ

مــن هي هذه الأمّ التي زارتني بضعةَ أيــام بعد رحلة الحج، وحصل بســبب زيارتها وهنُ الجســد، وضعف القوى؟ إنهــا (أم مِلْدَم)، وهي تســميةٌ أطلقتها العربُ عــلى الحُمّى -حماكم الله-، ولا تســألني -أيها القارئ الكريم- لماذا سمّوها كذلك؟!

زارتنــي هذه الأمُّ زيارةً أعاقتني عن كثير مما أريد فعلَه وإنجازَه، ومع ذلك فقد وقع من زيارتها -غير المرغوب فيها- بعضُ الفوائد، ســوى ما يرجوه الإنسانُ من كونها سببًا في حطّ الذنوب والأوزار.

نحن في هــذه الحياة ربما عاش أحدُنــا ربعَ قرن أو نصفَــه أو أكثر، هو في غالــب أيامه يغدو ويروح، ويُصبح ويمــسي، بل ربما مرّت عليه أهلّةٌ كثيرة، ومــا مَرِضَ، أو ألجأه فراش، أو دخل مشــفى -ولله الحمد والفضــل- فإذا ما حصل مثلُ هذا العــارض؛ تمنَّى ما كان عليه من قوةٍ ونشاطٍ، وتذكّر تلك المقولة الشهيرة: «الصحةُ تاجٌ على رؤوس الأصحّاء لا يراه إلا المرضى».

والسؤال: لماذا لا تتوارد هذه المعاني عند أكثر الناس إلا عند فقد أضدادها؟

قد يبدو حضورُها بقوة -في هذه الحال- أمرًا موافقًا للفطرة، لكن الذي لا ينبغي هو غيابُ هذا المعنى وعدمُ استحضاره حالَ القوةِ والنشاطِ، فترى الإنسانَ تمضي عليه الأيامُ والسنون دون هدفٍ يسعى لتحقيقه، كالذي يمضي قِبَلَ وجهه لا يلوي على شيء، فإذا سألتَه: إلى أين تتجه؟ قال: لا أدري! فيلتفت وراءه -وهو ابن الثلاثين والأربعين بل الستين- وإذا به لم يصنع شيئًا ذا بالٍ ينفع به نفسَه وأمّته.

ولهذا لما كانت هذه الحقيقة -حقيقة العيش في هذه الحياة وهدفها الأكبر- حاضرةً في نفوس الجيل الأول من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ووعَوْها جيدًا، وفهموا وصايا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الوجه الأكمل؛ ظهر أثرُها على حياتهم العلميةِ والعمليةِ، ومن ذلك: ما حكاه عبدُالله بنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أخذ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[1].

فابنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما سمع هذه الوصية القصيرة البليغة، ترجمها لتلميذه، ولكل من يأتي بعده بوصيةٍ أخرى، تفيد -وبوضوح- الحثَّ على اغتنام فترات النشاط والقوة، وتحذّر من التسويف والمماطلة في اغتنام ساعات الزمن، فلا يدري الإنسانُ متى ينقطع؟ بلْه أن يرحل!

(١) رواه البخاري (رقم٦٤١٦).

سمعتُ شابًّا أُصيب بشلل رباعي يتمنى ثلاث أمنيات، هي من أيسر ما يفعله الإنسانُ، ولكن...! تمنّى أن يسجد، وأن يُقلِّب ورقات المصحف بيده، وأن يَضمّ أمّه التي تعبت عليه كثيرًا ضمّة يعبِّر فيها عن شكره وامتنانه!

وآخَر مثلُه، يتمنى العافيةَ ليستطيع الصلاة مع الجماعة في المسجد.

وثالث أصابه السرطان يتمنّى العافيةَ ليفعلَ ويفعلَ من الطاعات والقربات، لكن المرض أنهكه، وحال بينه وبين ما يشتهي، سائلًا الله تعالى أن يَشفي كلَّ مسلم، وأن يبلّغ هؤلاء ما نووا من الخير.

لقد قدّر اللهُ أن تكون زيارةُ أمّ مِلْدَم في نهاية العام، وهو وقتٌ اعتاد فيه الناسُ على الحديث عن التخطيط، وعن مراجعة كشف حساب العام، ونحو هذه العبارات التي تتردد في مثل هذا الوقت، فجاء اللهُ بهذه الزائرةِ لتوقظَ أمثالَ هذه المعاني، ولتُذكِّرنا أن الحياة قصيرة، والسعيدَ من اغتنم أيام صحته ونشاطه في بناء مستقبله الأخروي، غير غائبٍ عنه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

عام جديد... ومعركة تتجدد

٧/ ١٢/ ١٤٣٦هـ

عند بداية كل عام هجري يتداول الناسُ مسألةً مشهورةً، وهي: حكم التهنئة بالعام الهجري الجديد، وفي الأعم الأغلب أن الناس يسمعون رأيين في هذا الموضوع، فمنهم من يُجيز وآخر يمنع، ولكلٍّ أدلّته التي يستدل بها، وليست هي مقصود هذه المقالة.

والأمر إلى هذا الحد معقولٌ، ويبشّر بخير، فحرصُ الناس على معرفة الحكم الشرعي شيء يدل على وعيٍ واهتمام، إلا أن الذي يكدّر هذا الفرح والاستبشار، هو: أن تتحول هذه المسألةً إلى جَدَل طويل، وربما تعنيف بعض الناس على من قال بأحد القولين، فتنقلب التهنئةُ إلى معركة من الجدل، تُذهب بهاءَ البحث العلمي المفيد!

والملاحَظ أن غالب هؤلاء المعنّفين والمنكرين ليسوا طلاب علم، بل محبين له ومعظّمين لأهله، وهنا يكمن وجه الخلل، ويتعيّن إنكار هذا المسلك في التعامل مع أمثال هذه المسائل الاجتهادية التي يسوغ فيها الخلاف. وإذا كان المجتهد ليس من حقّه أن يعنّف غيرَه في هذه المسائل؛ فكيف بالمقلّد؟

إن هذه المسألة نموذجٌ من عشرات النماذج التي تتكرر في الساحة العلمية، ساعَدَ على ازديادها وامتداد ألسنة لهبها، وتطفّل غير المختصين فيها عليها؛ انتشارُ وسائل التواصل التي أسهمت في سرعة مبادرة (المحبين والمقلدين) إلى النشر دون تروٍّ ولا بصيرةٍ، بل وإلى تقمّص شخصية المجتهدين في أمثال هذه المسائل، ثم يبدأُ مسلسل النكير والتحذير.

ويشبه هذا: النكير والتشديد في الحكم على أحاديث تتجاذبها وجهات نظر أهلِ العلمِ صحةً وضعفًا، فما إن يَنشر أحدُ الباحثين رأيًا له مبنيًّا على بحث واجتهاد -يُقبَل من مثله- إلا وتجد هذا النوع من (المحبين) مبادرًا بالنكير على الباحث أو على مَن قلّده ممن يَثق بعلمه؛ بأن فلانًا من العلماء-وخاصة إذا كان معاصرًا- خالفَ قولَك في هذا الحديث! وأشد من هذا وأنكى أن ينقلب هذا المقلّد حَكَمًا على هذه الأقوال، فيرجّح بينها بناء على اعتبارات لا صلة لها بالعلم مطلقًا!

ومن أسباب تأجيج هذا العراك العلمي: غرام كثير من الناس بنشر الغرائب من المسائل والاجتهادات المخالفة لما عليه عمل الناس الذي تلقوه عن أئمتهم! فينشر، ويعلّق بقوله في آخر الرسالة: (منقول) ظنًّا منه أنه لا يتحمل مسؤولية ما فيها!

إن من النصح للأمة أن يُنشر الوعي بخطأ مثل هذه المسالك، ويُصحّح المنهج في التعامل معها، وتُردّ الأمور إلى أهلها: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وأن فرضَ المقلّد ألا ينشر ما يصل إليه إلا ما تأكد ثبوته عن قائله من أهل العلم، وإذا استغرب شيئًا فليتوقف،

ولا ينشر، بل يسأل، ويتثبت عما بلغه، ولا يستعجل بالنكير، فقد قيل:

حفظتَ شيئًا وغابت عنك أشياء

وقــول الله أبلــغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

ومن نظر في عمل أكابر المحقّقين لكتب أهل العلم؛ وجد عندهم من الدقة والاحتياط في الردّ على ما قد يُظَنُّ أنه خطأ أو وهْم، ويجعلون رأيَهم عــلى محكّ الظن لا القطع، وبهذا تدرك أثر العلم في أهله من جهة التثبت والتروي، وأن الإنسان كلما زاد علمُه كان أكثر تثبتًا وترويًا، وأناةً في الرد أو التعقّب؛ فضلًا على التبديع والتفسيق، والله المستعان.

مؤتمر (تدبُّر) العالمي الثاني... والرؤية المستقبلية

١٩/ ١/ ١٤٣٧هـ

في رحاب الدار البيضاء في المملكة المغربية، وفي المدة من ١٥-١٦ من شهر الله المحرّم من عام ١٤٣٧ هـ انعقدت فعالياتُ (المؤتمر الثاني العالمي لتدبر القرآن الكريم)، الذي نظّمته: (الهيئةُ العالميةُ لتدبُّر القرآن الكريم)، بالتعاون مع (كلية العلوم الإنسانية والآداب) في جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، والذي وصفه الحاضرون بأنه ناجح ومحقِّقٌ لأهدافه -بحمد الله- التي مِن أهمها: لفتُ نظر الناس إلى هذا المقصد العظيم من مقاصد التنزيل، وقد لمستُ هذا عن كَثَب من خلال الحضور الكثيف لجلسات المؤتمر، وورَشِ عمَله، والدورات والمحاضرات المصاحبة، وكثرةِ السؤال والطلب على إصدارات الهيئة، صاحبَ ذلك تفاعلٌ رائعٌ من وسائل الإعلام في المغرب وخارجها، التي قامت بتغطية هذا الحدَثِ العلمي البهيج.

وبعد هذا المؤتمرِ وأمثاله، يتساءل كثيرٌ من الناس: ما الجدوى مِن أمثال هذه المؤتمرات؟ وهل ستبقى ثمراتُ تلك البحوث الأكاديمية

مجرّد أوراقٍ تُطرَح في هذه المناسبات، ثم تبقى محفوظةً في المجلدات التي تضمّها؟ أو الحواسيب التي كتبتْها؟

أقول -بعد حضور عددٍ لا بأس به من هذه المؤتمرات العلمية-: إنني مع تسليمي بأن بحوث المؤتمرات في كثيرٍ من الأحيان تبقى بحوثًا تُناقِش جزئيةً معيّنةً، وربما تَكرر طرْقُ بعض المسائل مرات عدّة، وكثيرٌ منها لا يتجاوز أسوارَ المؤسسات الأكاديمية، إلا أن هذه المؤتمرات لا تخلو مِن بحوث قيّمة تَظهر ثمرتُها عمليًّا في الساحة، دون أن يشعر الناسُ أن السبب في هذا المشروع أو ذاك هو ذلكم البحث الذي طُرِح في هذا المؤتمر أو ذاك، وأنه هو الذي قدح شرارةَ الفكرة، وأذكى أُوارَها، فتلقّاها بعضُ الموفَّقين، فجعلها مشروعًا عمليًّا تنتفع به الأمّة، كما يقع في المؤتمرات الطبيّة -على سبيل المثال- التي قد يَتساءل غيرُ المختصين عن جدوى كثيرٍ منها! فتأتي النتيجةُ على الساحة بعلاجٍ تنتفع به البشرية، دون أن يعلم الناسُ أن هذا العلاج كان في أصله بحثًا قُدِّم لأحدِ هذه المؤتمرات.

وهنا -وفيما يخص مؤتمر تدبّر الثاني- كانت الكلمةُ التي تردَّد صداها في المؤتمر، من خلال سماعي لبعض المهتمين، ومن خلال التوصيات هي: **ضرورة انتقال مشروعات تدبّر من ساحة التنظير -الذي أُشبِع بحثًا- إلى ميدان التطبيق**؛ من خلال تحويل المشروعات والأفكار التي طُرحت في هذا المؤتمر والمؤتمر الأول -وما سبقهما، وتلاهما من ملتقيات علمية- إلى شيءٍ عمَلي يلمسه المسلمون غيرُ المختصين، الذين يمثّلون الفئةَ الكبرى التي يَعنيها هذا المشروع.

وهذا الكلام حقٌّ، فإننا إذا أردنا أن ننقل عمومَ المسلمين إلى الحياة مع القرآن، وذَوقِ لذةِ فهمه وتدبّرِه، وجعلِه واقعًا معيشًا يُصلِحُ فسادَ

القلوبِ والأعمالِ والمجتمعات؛ فلا بد أن تتضافر الجهودُ لسلوك جميع الطُرق التي توصلنا للمسلم، سواء كان ناطقًا بالعربية أم لا، بل وتقريب معانيه لغير المسلمين، فإن الله تعالى وصف كتابه بأنه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

لهذا كله؛ فإنني أرى أن التَّبِعة على القائمين على هذه المشروعات الرائدة، سواءٌ كانوا من مؤسِّسي الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم أم غيرها من الهيئات والمؤسسات القرآنية، المعتنية بالقرآن: تفسيرًا وتدبرًا؛ أرى أن التبعة عليهم كبيرة، في الانتقال بكثيرٍ من البحوث التي تُطرح في هذه المؤتمرات إلى واقعٍ عمليٍّ، ينعم بخيره المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، ليَصِلوا بهدايات القرآنِ ونورِه إلى أكبر عددٍ ممكنٍ من قلوب المسلمين الذين يُراد لهم البُعد عن كتابهم؛ مصدر عزّهم وقوّتهم، مع المراجعة الدائمة لتلكم المشروعات تقييمًا وتقويمًا؛ لتبلغ الغايةَ منها.

ويزيد التَّبعةَ على هذه المؤسسات: توفّر الوسائل والأوعية الكثيرة والمتنوعة لنشر ما لديهم؛ من خلال مواقع التواصل بمختلف أنواعها، ومشروعات التعليم عن بُعد، والدورات العلمية، وغيرها من الوسائل التي أثبتت جدواها، ولم يبقَ إلا استثمارها بشكلٍ أكبر.

وهذا كلّه لا يقلِّل من جهودٍ كبيرةٍ تَقَرّ بها العين، يُشكر أصحابُها عليها، حقّقتْ جزءًا من هذا الأمل الذي أتحدث عنه، لكن مَن رأى عددَ المسلمين، وقارَنه بهذه المشروعات وجَد أن الشُّقّة بعيدة، ولكن: مَن سار على الدرب وصل، وحسبنا أن نلقى الله، وقد نهجْنا الطريقَ لمن بَعدَنا، ليَحمل الرايةَ أناسٌ في أصقاع الأرض، رأينا بعضَهم في هذه المؤتمرات، وآخرون مِن دونهم، لا نعلمهم، الله يعلمهم.

سفراء من نوع آخر

١٨/ ٢/ ١٤٣٧هـ

كنتُ مرةً في زيارة لجمهورية تنزانيا قبل نحو ستة عشر عامًا، ولقيتُ في تلك الرحلة عددًا من خريجي الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وجرت بيننا أحاديثُ متنوعةٌ، خرجتُ منها بقناعة تامّة، وهي: عِظَمُ أثَر احتضان بلادنا لأمثال هؤلاء الطلاب، الذين يُمضون في دراستهم أربع سنوات على الأقل، وكثيرٌ منهم قد يَصِل إلى سبع سنوات، إذا ما حسبنا سنوات تعلُّم اللغة العربية في المرحلة الثانوية، وبعضُهم قد يتجاوز العشر، إن كان من طلاب الدراسات العليا.

لاح لي شريطُ الذكريات التي عشتُها في تنزانيا يومَ الجمعة الماضي، وأنا أستقبل عددًا من طلاب المَنَح، الذين يَدرسون في جامعة الملك سعود، وكانوا من نحو عشر جنسيات من آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، ومنهم طلابٌ من جمهورية تنزانيا.

هذا النوع من الطلاب، ليسوا طلابًا يدرسون، ثم يغادرون، بل هم أكبر من ذلك بكثير، إنهم سفراء لنا في دولهم حينما يعودون إليها.

لقد لمستُ في رحلتي لتنزانيا -وغيرها من دول العالم الإسلامي- أن هذا النوع مـن الطلاب يؤدّون دورًا في بيان حقيقـة بلادنا وواقعها كما رأوها، لا كما سـمعوا عنها، ولا كما يتحـدث عنها الإعلام، وإنهم خيرُ مـن يدافع عن بلادنا إذا ما اتُّهمـت في مناهجها وعقيدتها، ولا ريب أن دفاعهم أبلغ أثرًا مما لو قام به مواطنون من البلد نفسه.

وثمـة شيء أكبر مـن هذا، وهـو أن نقل هؤلاء الطـلاب للمنهج الصحيـح، والعلم المؤصل؛ يؤتي ثمارَه على المـدى البعيد أكثر من دورةٍ علميةٍ عابرةٍ، أو زيارةٍ مؤقّتةٍ لشيخ أو أستاذ زائر في جامعة أو معهد، فابنُ البلد أعرف ببلده، وأصبر على لأواء قومِه وبني جلدته، وأخبر بتفاصيل الواقع من غيره.

ولأجل هذا الأثر الذي يُحدِثه اسـتقطابُ طلاب المَنح؛ دأبت بعضُ الدول التي تحمل أفكارًا ومذاهبَ منحرفةً ـمثل إيرانـ على استقطاب آلاف -بل عشرات الآلاف- إلى قُمْ أو النَّجف، أو غيرهما من المدن التي تَنشط فيها مدارُسها الدينية، فآتت هذه الاستضافات أهدافَها التي خطَّط لها واضعوها!

ونحن أهل السـنّة أولى بهـذا وأحرى، وأحق وأجـدر، ليس فقط لتحقيـق الجانب الـذي أشرتُ إليه؛ بل لكي نُسـهِم في زيـادة الوعي الصحيـح بشريعة الله، وبيان المنهج الحق، ونفي البِدَع والضلالات التي يَسـعى لنشرها أعداءُ السـنة، الذين لا يقتصرون على مجرد نشر البدعة، بل يهتبلون هذه الفرصة لشـحن النفوس على بلاد السنة، وتسييس هذه المنح الدراسية، وتسخيرها لخدمة الأجندة التي تحملها تلك الدولة، وما

أندونيسيا ونيجيريا -وهما من أكبر الدول الإسلامية عددًا في السكان- إلا شاهدٌ على استثمار إيران لهذه المنح في تحقيق مبادئها.

لذا؛ فإن الحرص على البرامج المصاحبة لدراسة هؤلاء، التي تزيدهم وعيًا وبصيرةً بالمنهج الحق، وتُبَصّرهم بخطر الأعداء -﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥]-، وإقامة الدورات التي تكسبهم المهارات اللازمة لبناء شخصيتهم العلمية، والمهنية، والتقنية، والدعوية، كلُّ ذلك من الأهمية بمكان.

ومما يُذكر، ويُشكر: وجودُ بعض البرامج والمشروعات الجادّة التي تحتضن هؤلاء السفراء، وهي وإن كانت في البدايات إلا أن المبشّرات التي تحملها كثيرة، ومما يُبهج النفسَ أنها تجد الدعم من الجامعات، بل ومن أكبر مسؤول على رأسِ الهرَم.

وأرى أن مِن أهمّ ما يجب غرسُه في نفوس هؤلاء الطلاب: تربيتُهم على التجرد لله، والصدقِ معه، وتركِ حظوظ النفس، ومعرفةُ فقه الاختلاف، وكيفيةُ التعامل مع النوازل، والتفريق بين الثوابت والمتغيرات في الشرع، وتدريسهم فقه الدعوة والسيرة في المرحلتين المكية والمدنية؛ حتى إذا ما عاد إلى بلده وإذا هو يَبني ولا يَهدم، يُقوّمُ ولا يقاومُ، يُصلِح ولا يُفسِد؛ لأن غياب هذه الأمور التي أشرتُ إليها قد يخرّج طلابًا يحملون الغيرة لكن تنقصهم الحكمة، فيسلكون طريقًا مجافيًا للحكمة، قد يترتب عليه من المفاسد والآثار السلبية على الدعوة وأهلها ما يحتاج معه إلى أشهر أو سنوات لكي يُرمّم الصدع الذي أحدثه، وهو لم يؤتَ من سوء قصد، لكن من سوء تصرُّف، وقِلّة فقه بالشرع وبالواقع.

وبالجملة، فإن العنايةَ بهؤلاء الطلاب، وإتاحةَ المجال لهم للتعلم؛ مما ينبغي دعمُه وتشجيعُه، وإعدادُ البرامج المصاحبة، التي يتحقق بها المقصود الأعظم من تعلّم هؤلاء، وإلا فإننا نخشى أن يكون العلم -الخالي من الحكمة والرشد- سببًا للبغي، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

خطاكم يا أهيل الجامعات!

٢٥/ ٢/ ١٤٣٧هـ

في اليــوم الذي أذهب فيــه إلى الجامعة، وكلما اقتربــتُ من موقعها؛ شــعرتُ وكأنني في أمواج متلاطمة من الســيارات، تُقــدّر بالآلاف، وبعضهــا يُقلُّ أكثرَ من راكب، وفي غضون أقل من ســاعة زمن، يدخل أســوارَ الجامعة عشراتُ الآلاف من الطلاب، بعضُهم يأتي من مســافةِ قصْر، وكثيرٌ منهم قريبٌ من مســافة القصْر، هذا في رحلة الذهاب فقط، ويتكرر هذا المشهد نفسه في بقية الجامعات، على تفاوتٍ في العَدد.

يبقى هؤلاء الطلاب قرابة ســت ســاعات على طاولات الدراسة، يَتلقون أنواعًا من العلوم، ومنهم مَن تخصَّص في علوم الشريعة بفروعها المختلفة، وأكثرُهم في علوم أخرى تحتاج إليها الأمّة.

كنتُ أفكّر في هذه الأعــداد الكبيرة من الطلاب، وكم هي الأوقاتُ التي تذهــب، والأموال التي تُنفق، والجهود التي تُبذل؟! شيء لا يمكن إحصاؤه، ولا عدّه!

في هذا الزحام البشري تبرز نفوسٌ كبيرة، وهممٌ عاليةٌ، وقلوبٌ تعلّقت

بأســـمى المعاني، فهي في أيّ تخصص كان، حيث تربّت هذه النفوس على الاحتســـاب في خطاها، وممشاها من بيوتها حتى عودتها في الهاجرة، فهم يطلبون علومًا تحتاج إليها الأمة، ولســـانُ حـــالِ أحدِهم يقول: ما دُمتُ ســـأذهب فلِمَ لا أحتســـب ذهابي وإيابي؛ ليَثقل ميزاني، ويَعظم أجري؟ وقدوتهـــم في ذلك أصحابُ محمـــدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فهذا معـــاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلتقي رفيقه في المهمة الدعوية التي وكّلهما بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن، فتحدثا في أمورٍ كثيرةٍ، منها أنهما تذاكرا القيامَ من الليل، فقال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما أنا فأنام وأقوم، وأرجو في نومتي ما أرجو في قَومتي[1].

وعـــن أُبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رجـــلٌ لا أعلم رجلًا أبعدَ من المسجد منه، وكان لا تُخطئه صلاة، قال: فقيل له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء، وفي الرمضاء؟ قال: ما يَسرّني أن منزلي إلى جنب المســـجد، إني أريد أن يُكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد جَمَع الله لك ذلك كله**»[2].

أليـــس من الغَبن أن يفـــوّت طالبُ الجامعة، والأســـتاذُ، والموظفُ؛ فرصةَ مضاعفة أجوره وحســـناته، وهي لا تُكلّف شيئًا سوى الالتفات إلى هذا القلب وتذكيره بأمر النيّة؟!

وقد أعجبني صنيـــعُ ابن الجوزي في (صيد الخاطـــر)، حيث أبدى، وأعـــاد في هـــذا المعنى في مواضع مـــن كتابه، ومن ذلـــك قوله: «ينبغي للإنســـان أن يَعرف شرف زمانه، وقدْر وقته، فلا يضيّع منه لحظة في غير

(١) رواه البخاري (رقم٦٩٢٣)، ومسلم (رقم١٧٣٣).
(٢) رواه مسلم (رقم٦٦٣).

قُربة، ويُقــدّم الأفضلَ فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيتُه في الخير قائمة من غير فتور بما لا يَعجز عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث: «**نية المؤمن خير من عمله**»[1]»[2].

وبحسبة يَســيرة بين اثنين: أحدُهما لا يحتســب نيتَه، وآخر يحتسبها؛ فسيظهر الغبنُ في شهر، فضلًا على سنة أو أربع سنوات!

ومثله في ذلك المدرّس -جامعيًّا أو غيره- كم يُفوّت على نفســه من الأجــور بغفلته عن هذه المعاني! مع أنه لو اســتحضر نيّة التعليم، ونَفْع الأمّة ورفعتهــا، وبناء الأجيال بالتعليم القوي؛ لحــاز أجورًا مضاعفةً، والبدنُ لم يتحمّل عبئًا جديدًا، بل المعروف أن احتساب القلب يهوّن تعبَ البدن، والموفَّق من وفّقه الله، وجعل مِن عاداته عباداتٍ وقرباتٍ إلى الله، رزقنا الله ذلك بمنّه وكرمه.

(١) قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص٢٥٠): «قال ابن دحية: لا يصح، وقال البيهقي: إسناده ضعيف. وله شواهد»، وضعفه ابن حجر في الفتح (٤/ ٢١٩).
(٢) صيد الخاطر (ص٣٣).

المغرد الملثم

٣/ ٣/ ١٤٣٧هـ

موقع التواصل الاجتماعي (تويتر) هو صورة مكرّرة لما يَحدث في كثيرٍ من تلــك المواقع الاجتماعية، والقارئُ الكريم لا يحتاج إلى شرحٍ لما يدور في هذه المواقع من أخذ وردّ، وسِجال لفظي، واصطفافٍ متنوع؛ رياضي، وقَبَلي، وفكري، وثقافي... إلخ.

ومما لفت نظري -وأنا على أبــواب العام الخامس من دخولي في هذا العــالم- أن هناك نوعيةً مــن المغردين، يمكن أن يُســمّى الواحد منهم: (المغرد الملثَّم)! يستتر خلفَ معرّف مجهول الهوية، وبصورةٍ رمزيةٍ! وكل هذا قد يبدو غير مســتنكر، لكــن حين يبدأ هذا المغرد الملثّم باســتعمال أســلوبِ الوصاية على غيره، ومحاكمته على تغريداته، ومطالبته بالتغريد عن بعــض الأحداث، وبالطريقة التي يريدها هو، لا بما يريدها صاحب المعرّف! وكأننا في زمنِ فتنة القول بخلق القرآن! إما أن تُجيب وإلا...!

فهذا كلّه مما يَأنف منه العاقل، ويســتثقله اللبيب، ويمقته الإنســانُ السَّــويّ، خاصة وأن غالب هذه المناكفات من هؤلاء (الملثّمين) تقع في

قضايا يسوغ فيها الاجتهاد، وللنظر فيها مسرحٌ، ويَسَع الإنسانَ أن يختار منها ما يشـــاء، أو على الأقل يَسكت؛ لأنه ليس له في هذه القضية أو تلك رأيٌ معيّن.

وهـــذا المغرد (الملثّم) الأرقع، المســـتتر خلفَ لوحة مفاتيحه ينســـى منزلته - في غمرة تعليقاته، وتقمّصه شخصيةَ المحقِّق، ومَحاضِر التحقيق التي يفتحها-، فيبيح لها امتحانَ الناس، واتهامهم في نياتهم، وتزكيةَ نفسه من حيث لا يشـــعر، فيَبهت هذا، ويرمي هذا ظلمًا وعدوانًا، ويَستعدي عليه مَن يـــرى أنه يمكن أن يُوصِل له ضررًا، ولو قـــلّ! ولو لم يكن منه إلا تأليب بعض المغردين عليه، ليمارســـوا الدورَ نفسَـــه! ولا أدري متى سيتوقف عدّاد سيئات هؤلاء! وتدوير رسائل البهتان والظلم مستمر؟! وتصويرها وتداولها في بقيّة وسائل التواصل قائمٌ على سُوقه؟

ويَعظم الخطبُ إذا كان هذا الهجوم المنظّم مغلّفًا باسم الدين، ومجللًا بلبوس الغيرة، وأنك إن لم تفعل مـــا يمليه هذا المغرد الملثم فأنت ناقص الدين، ضعيف الغيرة أو فاقدها!

والســـؤال: إذا كان هؤلاء (الملثَّمون) قد أَمِنوا العقوبة في الدنيا؛ فأين يذهبون من صُحُف الكرام الكاتبين؟ وبماذا سيجيبون ربَّهم إذا الصحف نُشِرت؟ وقيل للمظلومين المبهوتين: خذوا من حسناته بقدْر ظلامتكم؟!

أين يذهب هؤلاء الملثمون من: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النـــور: ٢٤]؟ وأيـــن هم من يوم سيشـــهد: ﴿عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٢]؟

إن من المحزِن والمخيف في الوقت نفسه: أن تتحول وسائلُ التواصل إلى أسبابٍ قويّة للتقاطع والتدابر، والاصطفاف -بأنواعه- عند أدنى قضيةٍ تُطرح، ولو كانت تافهة!

وما يُشاهَد قُبَيل المباريات الرياضية وبُعَيدها، وما أفرزته مِن تعصّب مقيت، وما فتحت على المجتمع من ألوان التصنيف والتقسيم، في وقتٍ الأمةُ أحوج ما تكون إلى الاجتماع، ونبذ أسباب التفرق؛ إلا أكبر دليل على ما ذكرتُه.

إن الواجب على العقلاء الذين لهم حضور إيجابي في هذه المواقع؛ أن يكون لهم دورهم في التوعية بهذه المعاني، قبل استفحال الأمر، واتساع الخرق على الراقع، وإلا فستكون تكاليفُ التصحيحِ والعلاج باهظةَ الثمن.

وأما المغرد الملثم، فإنني أوصيه بوصيةِ مَن يحب الخيرَ له، فأقول: اتقِ الله، وتذكّر يوم تُعرَض على الله لا تَخفى منك خافية، ولن ينفعك استتارُك خلف معرِّفك، أو اعتذارُك بأن فلانًا أغراك بمناكفةِ فلان، أو تشويه سمعةِ فلان، فستحاسَب وحدَك، وستنجو، أو تهلك وحدَك: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

وما أنا من المتكلفين

١٠/ ٣/ ١٤٣٧هـ

خلَــقَ اللهُ بني آدم مختلفــي الطبائع، متنوعي المشــارب والأخلاق، كمعادن الأرض تمامًا، فيهم الذهب، وفيهم الخزَف، وفيهم ما بين ذلك.

ومما جرى مدحُه عند العرب -بل عموم العقلاء- مدح العَفْوية، وذمّ التكلّف والخروج عن السجيّة، ما لم يكن ذلك في باب مجاهدة النفس على ترك خُلق قبيح، وســلوك سيئ! فجاء القرآن، وسيرةُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤكدان على هذا المعنى، وهو ما لخّصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخاطبًا قومه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦-٨٧] فوجده الناس -مســلمهم وكافرهم- كذلك، في لباسه، وفي منطقه، بل في حياته كلها! وصار الفقير والجاهل لا يستوحش في مجلسه، ولا يتهيّب سؤاله، حتى إن الغريب ليدخل المسجد، فيسأل: أيكم محمد؟

وفي صورةٍ مــن صور البُعْدِ عن أخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهديه القويم؛ طرأت على الناس في حياتهم الاجتماعية والعلمية رسومٌ وطقوسٌ لبسوا معها ثياب التكلّف، وتحمّلوا معها أمــورًا مادية ومعنوية، وطغت هذه المظاهرُ على العفوية والبســاطة، فأوجدت بينهم حواجزَ وهميةً، جعلت العلاقة بين بعض الناس على صفيح ساخن!

ولئــن هذا كان مذمومًا فيمن ليس معدودًا من أهل العلم ممن له نوع ولاية أو وجاهة؛ فكيف بمن وَرِثَ شــيئًا من تَرِكَةِ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فصار لا يمكن التواصل معه إلا بطقــوس متكلَّفة، وألوان من التعامل مصطنعة! فحجبت عنه الابتسامة، وغارت معه روح التبسط التي تقرّب الجاهل، وتحفّز السائل، وصار قريبَ البدن، بعيدَ القلب والروح!

ومن شــؤم هذا التكلف الــذي يتدثر به بعضُ المتسـبين للعلم: أن تتــسرب بعضُ صور التكلّــف إلى بعض طلابهم، وهــم بعدُ في بواكير الطلب! وحين تتقدم الســنّ بهذا الطالب، تظهــر عليه ألوانٌ أخرى من التكلف، فتراه مقلدًا لشــيخه الذي أحبّه حبًّا خالط لحمَه وعظمَه! يظهر ذلك في نبرة صوته، ومحاكاة خطّه ومشيتِه! وقد يصل هذا التقليد المتكلف إلى ما هو أبعد من ذلك، في ذوبانٍ مَقيتٍ لشــخصيته في شخصية شيخه، جعلت منه تابعًا، ونسخة طبق الأصل!

وقد لحظ ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعضَ صور هذا التكلف في عصره، فنبّه عليها، وحذّر منها، فقال: «يا أيها الناس، مَن علم شــيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن مــن العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾»[1].

وفي الواقع الاجتماعي، تثور أتربةُ هــذا التكلف؛ لتُعمي العيونَ عن لذة الصفــاء، وروعة العفويــة، ترى ذلك في مناســبات الأعراس، أو لقاءات الأصدقاء، وتجمّعات النساء! ولا ريب أن هذا مما يقلّص مساحة الفرح والسرور بها.

(١) رواه البخاري (رقم٤٨٠٩).

وأشدّ صور هذا التكلّف بؤسًا وجفافًا، حين يظهر بين الأب وأولاده، أو بين الأم وأولادها! بحجة بقاء ستار الهيبة!! وقد كان سيد المرسلين يتطامن ببدنه الشريف ليرتحله أحفادُه، ويركبوا ظهره! ويحمل بنتَ ابنته في الصلاة، ويُقبّل صبيانه.

وحين تنتقل هذه العدوى ليصيبَ فيروسُها الحياةَ الزوجيةَ؛ فقد خرجت المودةُ والرحمةُ من الباب الآخر! ودخل عليها الشقاءُ والجفافُ الذي يجعل السعادة هشيمًا تذروه الرياح!

ألا يعلم هؤلاء أن أعظم الناس جاهًا في الناس، وأعلاهم قدرًا عند ربّ الناس -فيما نعلم- رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان وافرَ الهيبة، عظيمَ الحشمة، رفيعَ الجناب، ومع هذا يَخدم أهلَه، ويخصِف نَعلَه، ويرقع ثوبَه، وكانت زوجاته يضاحكْنَه، وربما غارت إحداهن، فلم يعنّفها، بل تعامل مع ذلك بكل حكمة ورحابة صدْر؟!

وحين تستعرض أسئلةَ بعض المفتين فإنك تجد من يتكلف ما لم يكلّفه الله، فيوقِع نفسَه في حرجٍ برّأ اللهُ الدينَ منه، ومن أوضح الشواهد على ذلك: قصة ابن عقيل مع الموسوس الذي قال له: «إني أنغمس في الماء مرارًا كثيرة، وأشكّ هل صحّ لي الغسل أم لا؟! فقال له: اذهب فقد سقطت عنك الصّلاة! قال: وكيف؟ قال: لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رُفع القلم عن ثلاثة...**» منهم: «**المجنون حتّى يفيق**»، ومن ينغمس في الماء مرارًا، ويشكّ هل أصابه الماء أم لا فهو مجنون»[1].

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٣٤).

لقد خسرنا في حياتنا الاجتماعية والعلمية كثيرًا من العلاقات أو كدنا؛ بسبب ركوب هذه المطية الرديئة- التكلف -، وربّما برّر أحدُنا لذلك بأمورٍ لو عرضها على السيرة النبوية لوجدها مجافيةً لها، والواقع أن حظوظ النفس تحضر حينًا، وقد تُبْرَزُ بثوب الصيانة للعلم، وحفظ الجاه العلمي والاجتماعي، فحجبنا بذلك عن أنفسنا نسائمَ تلك الهداية القرآنية، التي لا ألذّ منها حين تهب على القلوب، وتستنشق عبيرها الأرواح، فتدركها بلا عناء: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦]!

في بيتنا معوق

١٧/ ٣/ ١٤٣٧هـ

قال بعضُ أهل العلم: كنا في جنازة، وحضرها شيخ يقال له: أبوبكر الضرير، وبين يَدي الجنازةِ صبيان يبكون، ويقولون: من لنا بعدك يا أبه؟ فلما سمعهم أبوبكر يقولون ذلك، قال: الذي كان لأبي بكر الضرير! فسألتُه عن سبب ذلك؟ فقال: كان أبي من فقراء المسلمين، وكان يبيع الخزف، وكانت لي أختٌ أَسنّ منّي، وكنتُ قد أُتِيَ عليّ في بصري، فانتبهتُ ليلة، فسمعت أبي يقول لأمي: أنا شيخٌ كبير! وأنت أيضًا قد كبرتِ، وضعفتِ! وقد قربَ منّا ما بَعُد، وهذه الصبيّة تَعيش بصحّة جسمها، وتخدِم الناس، وهذا الصبيّ ضرير! قطعة لحم، ليت شعري! ما يكون منه؟ ثم بَكَيا، وداما على ذلك وقتًا طويلًا من الليل، فأحزَنَا قلبي، فأصبحتُ، ومضيتُ إلى المكتب -على عادتي- فما لبثتُ إلا يسيرًا، إذ جاء غلامٌ للخليفة، فقال للمعلِّم: السيدةُ تسلّم عليك، وتقول لك: قد أقبل شهرُ رمضان، وأريدُ منك صبيًّا دون البلوغ، حسنَ القراءة، طيبَ الصوت، يصلي بنا التراويح.

فقال: عندي مَن هذه صفتُه، وهو مكفوف البصر، ثم أمرني بالقيام

معه، فأخذ الرسولُ بيدي، وسِرْنا حتى وصلنا الدارَ، فاستأذنَ لي، فأذنتِ السيدةُ لي بالدخول، فدخلتُ، وسلّمت، واستفتحتُ، وقرأتُ، بسم الله الرحمن الرحيم، فبكتْ، واسترسلتُ في القراءة، فزاد بكاؤها، وقالت: ما سمعتُ قط مثل هذه التلاوة، فرقّ قلبي، فبكيتُ، فسألتني عن سبب ذلك؟ فأخبرتها بما سمعت من أبي؛ فقالت: يا بني، يكون ذلك ممّن لم يكن في حساب أبيك، ثم أمرتْ لي بألف دينار، فقالت: هذه يتّجر بها أبوك، ويجهّز أختَك، وقد أمرتُ لك بإجراء ثلاثين دينارًا في كل شهر، إدرارًا، وأمرتْ لي بكسوة وبغلة مسرّجةٍ ملجّمة، وسرج محلي، فهو سبب قولي جوابًا للصبيان عندما قالوا: من لنا بعدك يا أبه[1].هذا الأعمى الذي مضت قصّتُه هو نموذجٌ لبعض حالات الإعاقة، أو ما يسمى ذوي الاحتياجات الخاصة التي توجد في بعض البيوت، سواء كانت هذه الإعاقة عمى، أو صممًا، أو إعاقة جسدية في الأطراف أو غيرها، التي عادةً ما يصاحب ولادَتَه بإحدى هذه العاهات شعورٌ عند والديه أو أحدهما بضيق الصدر، والقلق على مستقبله، والجزع من تَبِعة هذه الإعاقة.

والواقع أن الإنسان ليس له إلا خياران: إما الصبر والرضا، أو الجزع والقلق، فالأول يرتفع بإيمانه وصبره، ويرتاح قلبُه، ولسانُ حاله: هي من عند الله، وهي خِيرتُه، فسأرضى، وأُسلّم، وأما الثاني فإنما يَهبط بجزعه وقَلقِه، ويُتعب قلبَه، ويملأ صدرَه كمَدًا، ولن يجلب له ذلك شفاء أو تخلّصًا من تلك الإعاقة.

وثمة مَلحظٌ يُبصره أهلُ الإيمان، الذين قرؤوا القرآن، وتدبَّروه، حين

(١) نكث الهميان في نكت العميان (ص٣٢).

يقرؤون قولَه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢١٦]، ويقرؤون قولَه تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾[النساء: ١١]، ولسان حالهم: خِيرتُك يا رب، خيرٌ من خيرتنا لأنفسنا، وقد يكون هذا المعوق أقرب لنا نفعًا في الدنيا قبل الآخرة! وهذا حقّ.

فأما في الدنيا: فكم فتَحت هذه الابتلاءاتُ لهؤلاء المعوقين وأهليهم من لذّة التعلق بالله، ومناجاته، وحسنِ الظنّ به، وانتظارِ الفرج! وكم بنَتْ هذه الابتلاءاتُ في نفوسِ أهليهم من معاني الصبرِ والاحتمال! وكم...وكم...! وأعرف بيوتًا حصل لها ما وصفتُه، وقد كانوا من قبل في غفلة، وتقصيرٍ في الفرائض، وتساهُلٍ في بعض المحرمات، فجاء هذا المولودُ المعوق ليَكسرهم، وينبّههم من غفلةٍ ألمت بهم، وسببًا في حصول لذاتٍ قلبية لم تكن لولا ما قدّره اللهُ من هذا الابتلاء.

وأما في الآخرة: فهذه الابتلاءاتُ لهؤلاء المعوقين وأهليهم -مع الصبر والاحتساب- سببٌ في رفعة درجاتهم عند الله تعالى، رفعةً قد لا تبلغها أعمالُهم، كما في الأثر: «**إن العبد إذا سبقتْ له من الله عَزَّوَجَلَّ منزلةٌ لم يبلغها بعمله؛ ابتلاه اللهُ جل وعز في جسده، أو في ماله، أو في ولده، ثم صبّره على ذلك، حتى يبلّغه المنزلةَ التي سبقت له من الله**»[1]، ولأجل هذا المعنى قال بعضُ السلف: «**لولا مصائبُ الدنيا لقدِمْنا على الله مفاليس**»[2].

والسعيدُ مَن عاش العبوديةَ لله في السراء والضراء، ورأى مواقعَ الرحمةِ في منازل الابتلاء، وأيقن أن خِيرةَ الرحيم الرحمن خيرٌ من خيرته لنفسه، ومن لم يعش ذلك، تكّدر عيشه، وتنغصتْ حياتُه.

(١) سنن أبي داود (رقم٣٠٩٠) وفي سنده ضعف، لكن معناه صحيح.
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ١٦٤).

إلى أحبتي مدرسي الحلقات (ج١)

٢٤/ ٣/ ١٤٣٧هـ

لا أجدني أغبط فئةً من الناس كأولئك الذين منّ اللهُ عليهم بالبذل في تعليم أبناء المسلمين كتابَ الله وسنةَ رسوله ﷺ، وعلى رأسهم: مدرّسو حلقات تحفيظ القرآن الكريم في بيوت الله، وغيرها من محاضن العلم!

لقد كنتُ -ككثير من أبناء مجتمعي- قبل أكثر من ثلاثين عامًا طالبًا في هذه الحلقات، ثم تشرّفت بالتدريس فيها فترة من الزمن، وأدركتُ شيئًا من المعاناة التي يعيشها مدرسُ الحلقة تجاه بعض الأمور التي تَعرض له، وهي على كثرتها في ذلك الوقت إلا أنها اليوم أشدُّ وأكثر تعقيدًا، في ظل متغيرات كثيرة، أكثرها خطرًا هذا الانفتاح المبكّر لطلاب الحلقات على أنواع الشبهات والشهوات، الذي يصعب الصمودُ أمامه إلا بعونٍ من الله، ثم بأرضية قوية من التأسيس العلمي والإيماني.

ولستُ أزعمُ في هذه الأسطر المختصرة، والمقالات القصيرة استيعابَ هذا الموضوع، ولكن هي محاولة لذِكر بعض المنارات لعلها تُسهم في إثراء البحث فيه، وزيادة النقاش حوله.

وأوّل شيء ينبغي استحضارُه في هذا المقام: ضرورةُ أن يكون المعلّم على مستوى هذه الأحداث والتغيّرات، وأن يكون بصيرًا بذلك؛ فهو في هذا المقام ليس مجرد معلّم! بل هو طبيبٌ وصيدليٌّ معًا، فكيف يمكن للصيدلي صرف العلاج إذا لم يكن التشخيص صحيحًا؟!

وأهمُّ من هذا أن يتقدّم المعلّمُ على طلابه بالزاد الإيماني والعلمي؛ ليستمر في طريقه، وليكون توجيهه مبنيًّا على العلم الصحيح لا على مجرد العاطفة؛ ولهذا كثُر كلامُ السلف عن أدب صاحب القرآن وأثَره عليه في إخلاصه، وفي منطقه وصمته، وورعه وزهده، وفي عزّة نفسِه، وترفّعه عن الدنايا وسَفاسف الأمور، وأثره عليه في ليْلِهِ إذا هجعت العيون، وأثَرُه في علاقته مع والديه وأهل بيته وأشياخه وطلابه، وإن مطالعة كتابٍ ككتاب الآجرّي (٣٦٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أخلاق حملة القرآن) تكشِف هذا بوضوح، ولله درّ أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حين اختصرت ذلك السؤال الكبير عن أخلاقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: «إن خلق نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن»[1]، لذا لم يستطع أحدٌ من خصومه وأعدائه أن يَطعن عليه في خُلقٍ قطّ قبل الوحي، فكيف بعده!

إن الرسائل التي يتلقاها قارئُ تلك الوصايا العظيمةِ التي ذكرها أئمتُنا ليوقن أنه لا بد من الزادَين: العلمي والإيماني لصاحب القرآن، وإلا فقد ينقطع يومًا؛ فالطريق طويل، ولا بدّ له من زاد يوازيه في الطول ومشقة الطريق.

(١) رواه مسلم (رقم٧٤٦).

وإنـــما اعتنى العلماءُ بهـــذا النوع من الوصايا، وكثّفـــوا الحديثَ عنها بأساليب مختلفة؛ لعلمهم أن صاحب القرآن محطُّ أنظار الناس، وأنه ليس كآحادهم، وأن إخلاله بمواضع القدوة قد يكون فتنةً لغيره؛ إذْ ســـيقول الناس: هذا فلان، لم ينتفع من القرآن! أو لـــو كان للقرآن أثرٌ فيه لرأيناه في قوله وفعله! ولهذا فإن على المعلّم مسؤولية كبيرة في رعاية انتسابه لهذا الكتاب العظيم، وتلك المحاضن التربوية.

وأمـــا الزاد العلمي: فلا يقلّ أهميةً عن الإيماني، بل الزاد الإيماني مبني على الـــزاد العلمي، فإن الطريق لا تُضيء معالمه إلا بالعلم، وبقدر التزود منه تزداد الإضاءة، وتتضح الرؤيةُ، ويســـهل المضيّ، ورأسُ هذا العلم: فهْم كتابِ الله وتدبّره على الوجه الصحيـــح، فإنه من أعظم ما يبصّرك، ويزيدك إيمانًا، ويعلّق قلبَك بالملكوت الأعلى، ولو أن كل معلّم أخذ على نفسه تربيةَ نفسه بطريقة السلف؛ بتعلُّم عشر آيات كل يوم أو كلَّ أسبوع، وما فيها من العلم والعمل؛ لرأينا العجَبَ العاجب في أثر ذلك في المعلّم ثم طلابه. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

إلى أحبتي مدرسي الحلقات (ج ٢)

١/ ٤/ ١٤٣٧هـ

أشرت في المقال السابق إلى أهمية الزادَين: الإيماني، والعلمي لمدرس الحلْقة، وبيّنتُ أثره في تكوين المدرس، ومِن ثَمّ في الطلاب.

ومن أهم ما يتزوّد به معلّم القرآن: الصبر على هذه الوظيفة، وقد تأملتُ في سِير أئمة القُرّاء الذين صاروا شامة في جبين الأمة؛ فوجدت القاسم المشترك بينهم: هو الصبر، ولا غرو! فقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وتجد في سياق تراجمهم عباراتٍ متنوعةً تصل منها رسالةٌ واضحةٌ بأن هذا الشرف لا يناله إلا من صبر وأخلص. تأمل هذه العبارات التي ساقها الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه البديع (معرفة القراء الكبار) عن أولئك الذين بلغوا رتبةَ الإمامة في هذا الباب، ففي ترجمة نافع المدني: «وأقرَأَ الناسَ دهرًا طويلًا».

وفي ترجمة حفص بن سليمان: «قرأ على عاصم مرارًا...، أقرَأَ الناس دهرًا»، وفي ترجمة محمد بن عبدالرحيم أنه قال: «قرأتُ القرآن على أبي الربيع ابن أخي الرشديني، وختمت عليه إحدى وثلاثين ختمة».

وفي ترجمة محمد بن النضر (ابن الأخرم): «قال محمد بن علي السلمي: قمت ليلةً المؤذنَ الكبير لأخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثـــون قارئًا، ولم تدركني النوبة إلى العصر»[1]، وفي ترجمة بكار بن أحمد بن بكار: «من كبار أئمة الأداء. أقرأ القرآن نحوًا من ستين سنة!».

وفي ترجمة عبدالواحد بن عمر (أبو طاهر البغدادي): «قرأ عليه خلقٌ كثير».

وفي ترجمـــة عبدالرحمن بن أحمد الرازي أبـــو الفضل العجلي: «يقرئ أكثر أوقاته».

وفي ترجمة أبو طاهر بن سوار: «حَبَسَ نفسه على الإقراء والتحديث».

وفي ترجمة عمر بن ظفر أبو حفص المغازلي البغدادي: «وختم عليه في مسجده خلقٌ كثير، وكان من أهل العلم والعمل» ـ وتأمل قوله: «وكان من أهل العلم والعمل!».

وفي ترجمة الحســـن بن أحمد أبو العلاء الهمداني: «وكان يقرئ نصف نهاره القرآنَ والعلم، ونصفه الآخر الحديث».

وفي ترجمة علي بن محمد بن عبدالصمد الســـخاوي: «أقرأ الناس نيفًا وأربعين سنة، فقرأ عليه خلق كثير بالروايات».

وفي ترجمـــة ركن الدين إلياس بن علوان الإربـــلي: «يقال: ختم عليه أكثر من ألف نفس!».

---

(١) فكم يبقى المعلم في هذه الأعصار؟ بعضهم يتبرم إذا انتهى زميلُه من المدرسين في الحلقة قبل أذان المغرب!

بل أعجبُ من هــذا كله في الصبر على الإقــراء والتعليم: أن الإمام قالون المدني -صاحب القراءة الشهيرة- كان شديد الصَّمم، وكان ينظر إلى شــفتي القارئ، فيَرُد عليه اللحن والخطأ!». الله أكبر! ألم يكن بوسعه التوقف؟ فقد أدّى ما عليه وهو صحيح السمع!

وقال الذهبي في ترجمة شــيخه يحيى بن أحمد الإســكندراني المالكي المقرئ المعدل: «رحلت إليه، فأُدخلــت عليه؛ فوجدته قد أضر وأصم، ولكن فيه جلادة وشهامة، وهو في سبع وثمانين سنة!»[1].

أرأيــتَ؟ لقد تعمّدتُ الإكثار من هذه النــماذج، مع تنوع العبارات؛ ليزداد يقينُك بطبيعة هذه الوظيفة التي شرّفك الله بها!

ومما يزيدك صــبًرا ينقلبُ بعد ذلك إلى لذّة: بــصرك بطبيعة تجارتك هــذه، ومعرفتك بنوعية أرباحها، فأنت في تجارة مع الله، تُعلّم كتابَ الله، وتقرؤه لصبيانِ المسلمين وشبابهم - والخطاب أيضًا لمن تشرّفت بهذا من النساء- فرأسُ مالِك قلوبٌ وأشخاص مكّنك الله منهم لتعلّمهم أشرف ما نزل من السماء.

وأما أرباحك فلا تســل عنها! إنها ألســنةٌ تلهج بكتاب الله ما دامت عــلى قيد الحياة، وملايين أو مليارات الحســنات التي تدخل في رصيدك الأخروي، ومُعلّمون جُدد تدفــع بهم إلى ميدان التعليم؛ ليحملوا الراية بعدك، بل لعلك ترى هذا الغرس يُؤتي أُكلَه وأنتَ حيٌّ تُرزق.

---

(١) تنظــر أخبار أولئك القراء في (معرفة القراء الكبــار) على ترتيب ورودها في هذه المقالة: ص: (١٠٧، ١٤١، ٢٣٤، ٣٠٦، ٣١٢، ٤١٧، ٤٤٨، ٤٩٩، ٥٤٤، ٦٣٢، ٦٨٧، ١٥٦، ٦٩٧-٦٩٨).

وإذا بُليـــت بمن يزهّدك فيما أنت فيه، ويذكّرك بالدنيا؛ فقل له ما قاله الذهبي في قصة مشـــابهة لقائل هذه الكلمة: «يا ســـبحان الله! وهل محلٌّ أفضل من المسجد؟! وهل نشر العلم يقارب تعليمَ القرآن؟! كلا، والله، وهل طلَبَةٌ خير مـــن الصبيان الذين لم يعملوا الذنوب؟!»[1]. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩٦).

إلى أحبتي مدرسي الحلقات (ج٣)[1]

٩/ ٤/ ١٤٣٧هـ

استوقفتني كثيرًا في ترجمة الشيخ المقرئ طفيل بن محمد بن عبدالرحمن الإشبيلي؛ مقولة الأبّار فيه حيث يقول: «كان مجودًا ضابطًا عارفًا، أدَّب بالقرآن، وطال عمره، وأخذ عنه الآباء والأبناء»[2]، فتأمل قوله: «أدّب بالقرآن». الله أكبر! كم نحن في حاجة إلى هذا النوع من المعلّمين الذين يؤدّبون بالقرآن، بعد أن تأدَّبوا به وبأخلاقه، وصار القرآنُ يصوغ حياتهم وسلوكَهم وتصرفاتهم، فاختصروا بذلك مسافات طويلة على المتلقي عنهم، والسامع لتوجيهاتهم، وكأن صفتَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن خلق نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن»[3] ماثلةً أمام أعينهم، يرقبون الله في أنفسٍ طاهرةٍ أجلسها الله بين أيديهم لتتلقى عنهم القرآن.

وإن من أهمّ المعاني التي ينبغي استصحابها في مسيرك هذا: أنك في وظيفتك هذه تخدم دينَك، وتتشرف بوسام النبوة الشريف: «**خيركم من**

(١) أشرتُ في المقال السابق (ج٢) إلى أهمية زاد الصبر لمن سلك هذا الطريق، وأكمل في هذا الجزء بعض المعالم التي أراها مهمةً لمعلّم أشرف كلام في الوجود.

(٢) معرفة القراء الكبار، ص٥٧٨.

(٣) رواه مسلم (رقم٧٤٦).

تعلّم القرآن وعلّمه»[1]، ولستَ في مجرد وظيفة مادية، بل أنت في هذا متلبسٌ بالنصيحة لكتاب الله التي ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث تميم الداري المشهور: «**الدين النصيحة.. ولكتابه**»[2].

وحُبّك لطالبك ما تحبّه لنفسك؛ هو من صميم مبادئك التي تنطلق منها في تعليمك له، ولأن كان هذا حقًّا لكل مسلمٍ؛ فهو مع تلميذك أولى، يعينك على ذلك أن تتذكر يوم أن كنتَ طالبًا بين يدي شيخك وأستاذك قبل سنوات، مستشعرًا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٩٤]، ومتذكرًا قولَ نبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه**»[3].

اجتَهِد ما استطعت -أخي مدرس القرآن- أن تضع بصمةً في كل طالبٍ أكرمَك الله بالجلوس بين يديك؛ يتذكرها لك في كبَرِه، ويدعو لك بسببها، وهذه البصمة تتنوع، فقد تكون نصيحة فردية -عند الحاجة لها دون إملال- وقد تكون هديةً، وقد تكون البصمةُ كلمةً تشجيعيةً يسمعها منك مباشرةً، أو ترفع بها صوتك ليسمعها زملاؤه، أو تُرْسِلُ لوالده -أو وليّ أمره- رسالةً تخبره فيها بجانبٍ من جوانب التميز لتلميذك، تفعلُ ذلك وأنت تتذكر قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**نِعم الرجل عبدالله، لو كان يصلي من الليل**»[4]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوةٍ من الغزوات: «**كان خيرُ فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجّالتنا سلمة**»[5]،

(١) رواه البخاري (رقم٥٠٢٧).
(٢) رواه مسلم (رقم٥٥).
(٣) رواه البخاري (رقم١٣)، ومسلم (رقم٤٥).
(٤) رواه البخاري (رقم١١٢٢)، ومسلم (رقم٢٤٧٩).
(٥) رواه مسلم (رقم١٨٠٧).

وغيرها كثـير، ولا يخفى على لبيبٍ مثلك أهميـة الاعتدال في هذا المدح والتشجيع، فإنه إذا زاد عن حدّه فقَدَ الفائدة التربوية منه، بل ربما انعكس المقصود منه.

وأحـاذرك -أيها اللبيب- أشـدَّ الحذر من جرحِ مشـاعرِ تلميذك، خاصة أمـام زملائه، أو وليّ أمره؛ فإن هذا له أثـره الذي قد يبقى زمانًا طويلًا، وربما كان سـببًا في تركه الحلْقة، والشواهد على ذلك كثيرة، وقد قيل قديمًا:

وقد يُرجَى لجرحِ السـيفِ بـرءٌ
ولا بـرءٌ لما جَـرَحَ اللِّسـانُ

ولتتنبه أخي المدرس: أن وسـائل التواصـل، والنت، والجوالات، والتلفـاز، والألعـاب الإلكترونيـة... إلخ قد غزت غالـب البيوت، وجذبت أكثر الأطفال؛ فلا بد أن يحرص المدرس على ابتكار الأسـاليب التعليمية التي تنافس تلك المغريات، أو تجاريها، ولا يجمد على الأساليب التقليديـة؛ حتى لا يحس الطالب أن وقت درس القرآن إنما هو سـجن ينتظر فك أسره بفارغ الصبر!

وفقكم الله أحبتي مدرسي الحلقات، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

إلى أحبتي مدرسي الحلقات (ج٤)[1]

١٤/ ٤/ ١٤٣٧هـ

يشــكو عددٌ من مدرسي الحلقات مِن تأثير وسائل التواصل الاجتماعي - والإنترنت عمومًا - في أكثر الطلاب، ويجد المعلمُ صعوبةً في التعامل مع هذه الأجهزة التي غزت البيوت، وجذبتْ أكثرَ البالغين والكبار فضلًا على الأطفال، والذي أقوله من واقع مُعايَش: إن الحل ليس هو المنع، بل البحث عن وســائل عملية للاستفادة من هذه الوســائل في خدمة الحلْقة، وتطوير مهارتهم في تحقيق أهدافِ الحلْقة.

والمدرّس الحاذقُ هو الذي يبحث عن طرقٍ تجعل هذه الوسائل عونًا له على تحقيق مقصوده، ومِن ذلك:

أن يستشير أقرانَه من المدرسين، ويرتب لقاءً خاصًّا بهذه المسألة.

أن يطرح استبيانًا على طلاب الحلقة: ما أفضل الوسائل والطرق التي تجعلنا نستفيد من هذه الأجهزة والوسائل في تطوير مستوانا؟

---

(١) أشرتُ في المقال السابق (ج٣) إلى جملةٍ من المعالم التي يحتاج معلّم القرآن إلى استصحابها في طريق تعليمه، وفي هذا المقال تتمة.

فسيصلك مقترحات لم تخطر على بالك، والمهم أن تحرص على ابتكار الأساليب التعليمية التي تُنافس تلك المغريات، أو تجاريها، ولا تجمد على الأساليب التقليدية؛ حتى لا يحس الطالب أن وقت درس القرآنِ إنما هو سجن ينتظر فك أسره بفارغ الصبر!

ومن القضايا الشائكة التي يعانيها بعضُ المدرسين -وخاصة طلاب الثانوي والجامعة- مسألةُ رؤية بعض المعاصي الظاهرة على بعض الطلاب، وأشد منها: تذرّعُ الطالب بوجود خلافٍ فقهي في المسألة! فما الحل؟ وكيف نتعامل مع هذه المشكلة؟

وبدايةً أنبّه إلى قضية مهمة جدًّا، وهي: أننا -معشر المعلِّمين- حين ننبّه على معصيةٍ ما، يجب أن ننتبّه إلى أمورٍ، منها:

ما منزلة هذه المعصية من الشريعة؟ أهي من الكبائر أم من الصغائر؟ لأن التهويل للصغائر أو التهوين من الكبائر كلاهما مذموم.

وأضرب لذلك مثلًا: فبعض المعلِّمين حينما يتحدث عن مسألة الاستمناء، وأنه محرّم، ويذكر بعض مفاسده؛ فقد يكون حماسُه لهذا الموضوع أشدّ مِن حماسه وتأثّره من الحديث عن موضوع الغيبة! مع أن الغيبة من الذنوب التي حُكي الإجماعُ على تحريمها! بخلاف الاستمناء؛ فالخلاف فيه بين الكراهة والإباحة والتحريم موجودٌ بين أهل العلم.

وليس المقامُ مقامَ حديثٍ عن حكمها، وإنما عن فقه الحديث عن هذا النوع من المسائل، وفي كلا الحالين لا يَصحّ أن نفهم من ذلك التهوينَ من المعاصي! فكلّها شؤمٌ وبلاءٌ على العبد، وضررُها في الدنيا والآخرة،

لكن من الفقه أن تُنـــزَّل مسائلُ الشريعة منزلَتَها، فلسنا أغيرَ مِن الله على محارِمِه، بل وتهويلنا لما لم يهوّله الشرعُ فيه نوعٌ من القول على الله بغير علم، وأثَرُ هذا تربويًّا ســـيئ، كما ثبت في الواقع من حالات عدة، حيث يَشعر الشابُ أنه -بسبب اللغة الترهيبية الزائدة- منافقٌ بل وراسخٌ في النفاق! فيحدوه هذا إلى ترك الحلقة؛ لأنه لا يَحتَمل أن يعيش فيما يشعر أنه تناقضٌ صارخٌ بين الظاهر والباطن.

وليس من الجيّد -لا لك ولا لهذا الميدان الذي تنتمي إليه- أن يكتشـــف هذا الشـــابُ -الذي يســـمع كلامَك الآن، وهو غير قـــادرٍ على البحث أو الاطـــلاع- فيما بعد أنك كنتَ تدلِّس عليهم أو تكذِب على الشريعة باســـم الغيرة على الدِّين! بل ســـيكون أكثر احترامًا لك إذا علم أنك طرحتَ هذه المســـألة وتلك باعتدال وإنصاف، ولا يصح أبدًا أن نتصور أن التهويل هو الذي سيردعُ الشاب! كلا، فالهداية بيد الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [المائدة: ٤١].

ومما يتصل بهذه المســـألة المهمة: معرفة هل هذه المســـألة فيها خلاف معتبرٌ أم لا؟ فمســـألةٌ مجمَع على تحريمها ليســـت كمســـألة مختلف فيها، وعليـــك أن تكون أيها المعلّم، عارفًا بحدود المســـائل التي يحتاج طلابُ هذه المراحل إلى الحديث عنها، ومستَعدًّا للإجابةِ عما قد يوردونه عليك؛ فالشباب الثانوي والجامعي سيســـتمع لك، وسيستمع لغيرك، وأكثرُ ما يأسِره -إن كان صادقًا في طلب الحق- هو قوّةُ الحجة، ووضوحُ البرهان، والاعتدالُ في طرح المسائل.

وثمة مسلكٌ تربوي وإيماني ينبغي أن يستعمله المعلّم في هذا المقام، وهو مقام التربية بترك المتشابِه، والحذَر من تتبّع الرخص، والعنايةُ بصلاح القلب، وتنميةُ مبدأ الورع في نفسه، كما فعل النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع سبطه الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -الذي كان يومها طفلًا-: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب رِيبة**»[1]، وللحديث قصة، وهي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجده يأكل تمرةً من تمر الصدقة؛ فنهاه، ولم يتركه يأكل مع أنه كان طفلًا حينها!

ختامًا، فإن مسيرتك - أيها المعلّم الفاضل - مسيرة ذاتَ أعباء، ومهمتك مهمةٌ ذات تكاليف؛ فاستعن عليها بالدعاء الصادق لك ولطلابك، والضراعة بين يدي الله، ومراجعةِ المسيرة بين فينةٍ وأخرى؛ فلن يخيب من تعلّق بمولاه، واستشار إخوانَه، وتهيّأ للإصلاح.

(١) مسند أحمد (رقم١٧٢٣)، والمستدرك (رقم٧٠٤٦)، وسنن الترمذي (رقم٢٥١٨) وقال: حسن صحيح.

كنوزُ ما بين الأذانين

٢٢/ ٤/ ١٤٣٧هـ

حدثني أحدُ شيوخنا الذين درّسونا -وهو من بلاد الشام- فقال: كنتُ في صبايَ وشبابي المبكّر شغوفًا جدًّا بالقراءة، وكان أبي ممن يصلّي في البيت، وهو ممن يصنَّف في عامّة الناس، وكان بمجرد ما يدخل الوقتُ يَصُفّ قَدَميه، فيصلي ما شاء الله أن يصلي حتى يحين وقتُ الإقامة، وكنتُ -مِن شغفي بالقراءة- أستمرّ فيها حتى تُقام الصلاة، فلما تكرر ذلك منّي قال لي والدي: ما هذا الذي تقرأ يا بني؟ قلت: كُتب علْم، فقال: يا بُنيّ، العلم الذي لا يجعلك تقوم إلى الصلاة فورَ سماع المؤذن (بلاش منّه)!

هكذا بمنطق الفطرة والديانة الصادقة أرسل والدُه هذه الرسالةَ التي خرجت بلا رتوش ولا حواشٍ ثقيلة، إنها كلمات مختصرة تحمل في طياتها رسالةً مفادها: ما قيمةُ العلم بلا عمل؟ وأين أنت من هذه الكنوز التي تنتظرك بين الأذانين؟

الأوقاتُ المهدَرةُ في حياةِ كثيرٍ منا أكثر من أن تُحصَر، والشكوى من عدم قدرةِ البعض على إكمال حزبه اليوميّ من القرآن بسببِ المشاغل صارَت قصةً شبه يومية! والألمُ الذي يعتصر قلوبَ الأكثرين مِن عدم

ذوق الصلاة، ورؤيةِ الأثر الذي ينبغي لها في القلوب؛ بات من الأحاديث التي يتهامس بها بعضُ الصالحين في مجالسهم.

وإذا أردنا أن نُشـــخّص سببًا من هذه الأسباب فسنجد أن تفريطَنا في تلكم الدقائق المحدودة بين الأذان والإقامة أحدُ الأسباب المهمة.

وقد تأملتُ فيما بين هذين الأذانين من الكنوز، فدُهشـــت! وتعجبتُ من تفريطنـــا فيها، وأكبرتُ أولئك -المحســـوبين على العـــوام- الذين يُســـابقون المؤذنَ للدخول إلى بيت الله! وقلتُ في نفسي: يا حسرتاه، على علمٍ لم يدفع إلى هذه المغانم!

إن المبـــادِر إلى هذه الدقائق بين الأذانـــين، بمجرد بقائه ينتظر الصلاةَ فهو في صلاة، وملائكةُ الرحمن لا تفترُ عن الدعاء والاستغفار له، كما في الصحيحين عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**وإذا دخل المسجد، كان في صلاة ما كانت تحبسه، وتصلي -يعني عليه الملائكة- ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يُحْدِث فيه**»[1].

والله لو أن أحدنا بلَغَه أن أحدَ الصالحين المعروفين بإجابة الدعاء دعا له؛ لفرح! فكيف بملائكة الرحمن تدعو له كلما تقدّم لبيت الله، وانتظر فريضةَ الله!

وليس هذا فحسب، بل هو حين يتقدّم، ويصلي ركعتين فقط، فهو بهذا يصلي أربع سجدات، وحسبك أن تتأمل في هذا الحديث لترى كم نخسر هذه الفضائل عندمـــا لا نأتي إلا مع الإقامة أو بعدها، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليك بكثرة الســـجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة**»[2].

---

(١) رواه البخاري (رقم٤٧٧)، ومسلم (رقم٦٤٩).
(٢) رواه مسلم (رقم٤٨٨).

وإذا افترضنا أن هذا المبكّر قرأ خمسَة أوجه من القرآن فقط -ربع جزء-، فكم فيها من حرف؟ وكم في تلك الحروف من حسنات مضاعفة؟ «**مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[1].

ومن الناس من يختار الدعاء بين هذين الأذانين؛ رجاء ما ورد في الأثر: «**لا يُرد الدعاء بين الأذان والإقامة**»[2]، وللدعاء في هذه الدقائق مذاقٌ خاصٌّ، كما حدّث بعضُ من جرّبه، ومنهم أبوبكر النيسابوري الشافعي الفقيه المعروف بالصبغي (٣٤٢هـ)، فقد حدّث عنه من رآه، أنه إذا أذّن المؤذن يدعو بين الأذان والإقامة، ثم يبكي[3].

ولك أن تتصور حال هذا المصلّي الذي لم تُقَم الصلاة إلا وقد تضمّخ بخَلُوق هذه البركات: استغفار ملائكة، ورفعة درجات، وحطّ سيئات، وآلاف مؤلّفة من الحسنات من جرّاء تلاوة الآيات! وسكون نفْسٍ بالدعاء، لك أن تتصور هذا وهو مُقبِل على صلاة الفريضة، أيُّ فرقٍ بينه وبين إنسانٍ جاء يسعى سعيًا، يلتقط أنفاسَه، لا يدري ما يقرأ، أو ما يتلوه إمامُه!

اللهم، فلا تحرمنا هذه البركات بذنوبنا، وارزقنا تدارك ما بقي من أعمارنا فيما يقرّبنا لديك، واجعلنا ممن وُفّق للعمل بما علم.

---

(١) رواه الترمذي (رقم٢٩١٠).

(٢) روي هذا الحديث مرفوعًا وموقوفًا، وقد صححه ابن خزيمة مرفوعًا، قال ابن عبدالبر في (التمهيد) (٢١/ ١٣٩): «قد روي من وجوه حسان».

(٣) تاريخ الإسلام ت تدمري (٢٥/ ٢٥٧).

وهن الانقياد

٢٩/ ٤/ ١٤٣٧هـ

السـيرُ إلى الله تعالى طريقُه طويلةٌ لاحِبَـة[١] ولكونها تُقطع بالقلوب لا بالأقدام فقد تكاثرت كلمات الأئمـة الأعلام في بيان المحفزات التي تُعين على سـلوك هذا الطريق والانتظام فيه، والتحذير من العقبات التي تعترض سالكَه، أو توْهِن سيرَه فيه.

ولئن كان التسـليمُ المطلَق لأوامر الشريعة، وتعظيمُ أمر الله ورسوله ونهيِهما من أوّلِ هذه المحفزات والدعائـم؛ فإن هذا أيضًا محفوف بما قد يشـوّش عليه، ويكدّره، ومِن أجمل العبارات التي استوقفتني في التعبير عن هذه المشوّشـات قول أبي إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب (المنازل) -في سـياق حديثه عن تعظيم الأمرِ والنهيِ-: «هو ألا يُعَارَضَا بترخّصٍ جافٍّ، ولا يُعرَّضا لتشديدٍ غالٍ، ولا يُحْمَلا على علةٍ توهنُ الانقيادَ»[٢].

ولا أخفيك -أخي القـارئ- أنني بقيتُ فترةً طويلـةً أتأمل كلمتَه الأخـيرةَ: «ولا يُحْمَلا على علـةٍ توهنُ الانقيادَ»! وطفقـتُ أتأمل فيها، وفي آثارهـا، ومرّت أمام ناظريَّ قصةٌ طويلـةٌ كَلَّ فيها عزمُ الانقياد عند

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٣٥): «اللاحِب: الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ الْمنْقادُ الَّذِي لاَ يَنْقَطِع».
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٤).

أشـــخاص، ولاحتْ في أقوالٍ ومواقفَ مختلفة في الغابرين والمعاصرين؛ كشـــف لي عن سرّ ذلك الوهنِ تعليقٌ متينٌ لابـــن القيّم على هذه الجملة المحكمة من كلام أبي إسماعيل حيث يقول:

«وقولـه: ولا يحمـلا عـلى علـة توهـن الانقيـاد»، يريـد: ألا يُتأول في الأمـر والنهـي علـة تعـود عليهـما بالإبطـال، كـما تـأول بعضُهـم تحريمَ الخمـر بأنـه معلَّـل بإيقـاع العـداوة والبغضـاء، والتعرض للفسـاد؛ فإذا أُمِـن مـن هـذا المحـذور منـه جـاز شربـه...، **وقـد بلـغَ هـذا بأقـوامٍ إلى الانسـلاخ مـن الديـن جملةً!**

ومن العلل التي توهن الانقياد: أن يعلّل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر، فيضعف انقياد العبدِ إذا قام عنده أن هذه هي علة الحكم؛ ولهذا كانت طريقة القوم -يعني السلف الصالح- عدم التعرض لعلل التكاليف خشيةَ هذا المحذور.

وأيضًا، فإنه إذا لم يمتثل الأمرَ حتى تظهر له علّتُه؛ لم يكن منقادًا للأمر! وأقل درجاتـــه: أن يضعف انقياده له...، وكل هذا من ترك تعظيم الأمر والنهي، وقد دخل من هذا الفساد على كثيرٍ من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله، فما يَدري ما أوهنت العللُ الفاسدةُ من الانقياد إلا الله! فكم عطّلت لله من أمر! وأباحت من نهي! وحرّمت من مباح! وهي التي اتفقت كلمةُ السلف على ذمّها[1].

وحاصل كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوضّح أن الوهن في الانقياد لأمر الله ورسوله يعتري السائرَ إذا وقع في أمور، منها: أن يتأول في الأمر والنهي علّة تعود

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٧) وقد اختصرت كلامه لضيق المقام، وإلا فهو جدير بالمراجعة.

عليهـــا بالإبطال، وأن يعلّل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر، أو أنه لا يمتثل الأمرَ حتى تظهر له العلة، ثم لخّص نتيجة هذه المحاذير بأن مآلها في كثير من الأحيان إلى الانسلاخ من الدين! ولهذا كان كثيرٌ من الســلف يتحاشــى تكلّف علل التشريع؛ خشيةَ القول على الله بغير علم، وحذرًا من برودة القلب تجاه الأمر والنهي إذا وافق العلل الضعيفة التي ارتضاها ذلك الشخص.

إن المتأمل في الساحةِ العلميةِ والفكريةِ ليجد ما حكاه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأيَ العين؛ إذْ برز أقوامٌ تعاملوا في بدايات بحثهم مع النصوص وعللِها بتأويلات باردة، وتكلّفات ظنيّة لا يُقصَدُ منها تلمّسُ مراد الله ورسوله، فأوصلهم ذلك النظر -المشــوب بالهوى- إلى أحــد أمرين: إما تأولًا في ترك الامتثــال، أو تركه بالكلية؛ فوهنَ انقيادُهــم، وضعفتْ عزائمهم، ومنهم من نكص على عقبيه -نعوذ بالله من الحور بعد الكور-.

وهل وقعت البدعُ، وسُــلخت النصوصُ من بهــاء الاتباع، وجلالةِ التسليمِ إلا بمثل هذه التأويلات؟!

ولله درّ الشــاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «فالمبتدعُ من هذه الأمة إنما ضلَّ في أدلتها حيــث أخَذَها مأخذ الهوى والشــهوة، لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله، **وهذا هو الفرق بين المبتــدع وغيره؛ لأن المبتدع جعل الهوى أوّل مطالبــه، وأخذ الأدلة بالتَّبَع...، بخلاف غــير المبتدع فإنه إنما جعل الهداية إلى الحق أول مطالبه، وأخّر هواه -إن كان- فجعله بالتبع**»[1].

(١) الاعتصام (١/ ٢٣٤).

إن هـذا المقام -أعني مقام التسليم- لا تصلح معه التأويلاتُ الباردة، ولا التعليلات التي تُوهن الانقياد، وتُضعف عزم المبادرة، بل لا يصلح معها إلا قلوبٌ قويةُ العزم في تلقّي الأمر والنهي، وتقول بلسان يغترف من القلب ما قاله ذلك الصحابي الجليل -وهو يتلقى نهي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن شيء محبوب له-: «**نهانا رسولُ الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **عن أمرٍ كان لنا نافعًا، وطواعيةُ الله ورسوله أنفع لنا**»[1].

وتتأكد الوصيةُ بهذا الأمر في عصرٍ انفتح الناسُ فيه على مقالاتٍ وكتبِ أقوامٍ لا خَلاق لهم، ولم يشـّموا رائحةَ الانقياد والتسليم، بل نصبوا عقولهم حاكمةً على نصوص الشريعة، فعطّلوا النقلَ بالعقل! فليت شعري بأي عقلٍ من عقولهم نَزِن النقل؟! وماذا نصنع لو اختلفت عقولهم؟

لقد تأكد لكل مُطالعٍ لأخبار السابقين واللاحقين؛ أن الوصول إلى مقبرة الانسلاخ من الشريعة يبدأ من (وهن الانقياد) المشوب بالهوى، والسعيدُ من وُعِظ بغيره.

(١) رواه مسلم (رقم١٥٤٨).

العافية

١٣/ ٥/ ١٤٣٧هـ

كنتُ كغيري من الناس أردد بعض الأذكار التي تُشرع في طرفي النهار، ومنها: قوله ﷺ: «**اللهم، إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي...**»[١]، وقوله: «**أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية...**»[٢]، وقوله عند النوم: «**اللهم، خلقتَ نفسي وأنت توفاها، لك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها، اللهم، إني أسألك العافية**»[٣]، وكنتُ أَمُرُّ بقول العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه للنبي ﷺ: يا رسول الله! علمني شيئًا أسأله الله عز وجل، قال: «**سل الله العافية**»، فمكثتُ أيامًا ثم جئت فقلت: يا رسول الله، علمني شيئًا أسأله الله، فقال لي: «**يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة**»[٤]. كنتُ أمرُّ على هذه النصوص وأمثالها مرورَ الكرام، دون تأمل لمعانيها، حتى اجتمع لديّ

---

(١) رواه أبوداود (رقم٥٠٧٤) وابن ماجه (رقم٣٨٧١) وسنده صحيح.
(٢) رواه البخاري (رقم٢٩٦٥)، ومسلم (رقم١٧٤٢).
(٣) رواه مسلم (رقم٢٧١٢).
(٤) رواه الترمذي (رقم٣٥١٤)، وقال: هذا حديث صحيح.

أكثر من موقف جعلني أُعيد النظـرَ في تأمل عظيمِ مضامينها، وحاجتنا إليها كل لحظة من حياتنا اليومية.

لقد أحسستُ بهذه المعاني وأنا أرى شقيقي -ألبَسَه اللهُ لباس العافية- يتلـوى من الألم بعد إصابته بمرض أنهك جسَـدَه، ومنَعـه من الطعام والشراب، وحرَمه من لذة اللقيا بالأحباب، والصلاة في الجماعة، وغيرها!

إن كلّ واحد منّا تمرُّ به أيامٌ يمـرض فيها، أو يعود فيها مريضًا، لكن أن تكون بقرب مريضٍ يعاني ويتألم، والمرض يُقْعده ويؤلمه؛ حينها يكون نظرك لمعنى العافية مختلفًا!

ورأيتُ شـيئًا من معاني العافية في شبابٍ استعجلوا التصدي لمواقف ليسوا أهلًا لها، وتصدّروا قبل أوانهم، ووقفوا مواقف هي بالكبار -الذين عركتهم التجارب، واشتد عُودهم في العلم- أليَق وأحرى، فما كان منهم إلا النكوص على العقب، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير! وربّما خالط تلك المواقف بعضُ حظوظ النفس، ولا يظلم ربك أحدًا.

ورأيـتُ العافيةَ: في حفظِ اللهِ لعبده من مقالات أهل البدع والضلالِ العلمـي والفكري، وعصمتِه بفضله تعالى من الركون إلى ذكائه وسـعة اطلاعه، وفطنته، ونظرته لمحدودي الاطلاع على تلك المقالات والكتب نظرةَ شـزر! ووجدتُ أبا سـليمان الخطابي قد سـبق إلى التعبير عن هذا المعنـى الذي يجول في نفسي وأكثر، حين قـال -وهو يتحدث عن البلاء الذي لحق الأمةَ من علم الكلام-:

«ثم إني تدبرتُ هذا الشـأنَ، فوجدتُ عظم السبب فيه: أن الشيطانَ صار بلطيف حيلته يسـوّلُ لكل مَنْ أحسَّ من نفسه بفضل ذكاءٍ وذِهن، يوهمه أنه إنْ رضي في علمه ومذهبه بظاهرِ من السنة، واقتصرَ على واضحِ

بيانٍ منها؛ كان أسوةَ العامة، وعُدَّ واحدًا من الجمهور والكافّة، فحرّكهم بذلك إلى التنطع في النظر، والتبدع في مخالفة السنة والأثر؛ ليَبِينُوا عن طريقةِ الدهماء، ويتميزوا في الرتبة عمن هو دونهم في الفهم والذكاء، واختدعهم بهذه المقدمة حتى أزلهم عن واضح المحجة، وأورطهم في شبهات تعلّقوا بزخارفها، وتاهوا في حقائقها، ولم يخلصوا فيها إلى شفاءِ نفسٍ، ولا قبلوها بيقين.

ولما رأوا كتابَ الله تعالى ينطق بخلاف ما انتحلوه، ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه؛ ضربوا بعضَ آياته ببعض، فتأولوها على ما سنَحَ لهم في عقولهم، واستوى عندهم على ما وضعوه من أصولهم، ونصبوا العداوةَ لأخبار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولسنّته المأثورة عنه، وردوها على وجوهها، وأساؤوا في نقَلَتها القالة، ووجّهوا عليهم الظنون، ورموهم بالفرية، ونسبوهم إلى ضعف السنة، وسوء المعرفة بمعاني ما يروونه من الحديث، والجهل بتأويله! ولو سلكوا سبيلَ القصد، ووقفوا عندما انتهى بهم التوقيف؛ لوجدوا بَرْدَ اليقين، ورَوْح القلوب، ولكثرت البركة، وتضاعف النماء، وانشرحت الصدور، ولأضاءت فيها مصابيحُ النور، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[1].

هنا ينكسر القلم، ويشعر العبدُ بالخوف، حين يوقن أنه لا مناص من سؤال الله العافية في الدين والدنيا، كيف والعبد إن لم يعصمه مولاه؛ فَقَدَ صحتَه في لحظة، أو ذهب دينُه في غفلة من قلبه، وما أجمل ما أوصى به عبدالأعلى التيميُّ حين قال: «أكثروا سؤال العافية، فإن المبتلى، وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلَوْنَ اليومَ إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل

(١) الغنية عن الكلام وأهله (ص٢٥).

العافيــة اليــوم، إنه رُبَّ بــلاءٍ في الدنيا قد أجهــد في الدنيا، وأجزى في الآخرة، فما يأمن مَن أطال المقام عــلى معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يحذره في الدنيا، ويفضحه في الآخرة»[1].

فيا إلهي، أســبغ علينا العافية في الدين والدنيــا والآخرة، يا خير من دُعي، وأكرم من أجاب.

(١) الشكر لابن أبي الدنيا رقم (١٥٧).

لله درك يا نزار!

٢٠/ ٥/ ١٤٣٧هـ

سأله المذيع -الذي يقدّم أحد برامج الفتوى الأسبوعية الشهيرة التي تُبَث من السعودية-: ما سرّ قدرتك على الوصول إلى البرنامج في كل حلقة؟ فقال -بعبارات مختلطة بالعَبَرات-: «هذا مِن فضل الله، ولنيتي أن أخدم أمة سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن أخدم هذه الأمة، والله إنني فقير ومحتاجٌ إلى مالِ هذه المكالمات، ولكن حبي لله، وحبي للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحبي لأمة محمد، وأنا لستُ عربيًّا، ولكني أحب قوم نبيي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنني أغار على هذه الأمة، وإنني أغار على الأقوام الذين يموتون في سوريا، في فلسطين، في العراق، في أفغانستان، في بورما، والله أغار على حبيبي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقول: يا رب، يا رب، لو مُتُّ، بهذا العمل نجّني من النار، بهذا العمل نجّني من النار».

ختم أخونا نزار مكالمته والعبرات تخنقه، وهو يردد: «يا رب، يا رب، لو مُتُّ، بهذا العمل نجّني من النار، بهذا العمل نجّني من النار» !الله أكبر! أيّ قلب هذا الذي حمله نزار؟ ذلك الرجلُ العاميُّ المقْعد.

لقد سمعتُ المقطع الذي حمل هذه الكلمات الرائعة مرارًا، وهو وإن كان لا يجاوز دقيقةً في حساب الزمن؛ إلا أنه حملَ جملةً من المشاعر هي أكبر من عمرها الزمني، لعلي أشير إلى أبرزها:

أولها: أن الله يغرس لهذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته، وربما خفي علينا منهم العدد الكبير، وقد يُكرمنا الله بسماع أخبارهم، أو اللقاء بهم، لتنشطَ نفوسٌ ملّت، وهممٌ قد كلّت؛ لتواصِل السير في طريق الدعوة الطويل، وتصبر على ذلك حتى تذوق طعمَ الراحة إذا وَضعتْ أقدامها على أول عتباتِ الجنّة.

ثانيها: أن مَن امتلأ قلبُه رغبةً في خدمة الدين؛ فلن تُعيِيَه الحيل للبحث عن وسيلة، لا يثنيه عن ذلك شهادةٌ ولا مؤهّل، ولا منصبٌ من المناصب، فهذا رجلٌ مقعدٌ، عاميٌّ، ليس بعربي، لم يجد وسيلةً يعبّر بها عن حبّه الطاهر لإخوانه المسلمين، ولا عن حبّه العظيم لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمّته إلا توفير بعض قيمة ما يحتاج إليه من طعامه -وليس شيئًا زائدًا- ليَصرفه في قيمة مكالمةٍ يجمع فيها بعضَ أسئلة جماعته وأهل حيّه؛ ليكون سببًا في تفقيههم في الدين، ودلالتهم على الطريق الصحيح.

ثالثها: هذا الهمُّ الذي أقامه، وأقعده لحال إخوانه المسلمين، وجعله يسعى للبحث عن وسيلةٍ يخفّف بها التَّبِعة التي شعر بأنها ملقاة على عاتقه، وأن المسلم مهما كانت حاله؛ فإنه ينبغي له أن يسعى في المشاركة بكل ما يستطيعه من إصلاح، ورأْبٍ للصَّدع، وتأليفٍ للقلوب، ولو بكلمة طيبة، أو دعواتٍ صادقة لإخوانه، خاصةً المكلومين منهم.

إننا نملك في المجتمع الإسلامي ملايين الطاقات، ومئات الملايين من البشر، فلو أن كلّ واحدٍ منهم سعى بمبادرةٍ واحدة -وإن قلّت- لنفْعِ مَن حوله من إخوانه المسلمين؛ لكانت أحوالُ المسلمين غير ما هُمْ عليه.

إن قصةَ أخينا نزار، تقول - وبوضوح -: إن الاعتذار عن نفعِ المجتمع بعدم تحصيل العلم الشرعي، أو ضعف القدرة الخطابية، أو قلة المال؛ غير مقبول! فمن حَمَلَ الهمّ؛ بحث عن أكثر من طريقة، ومن لم يفعل هذا، فليتذكر قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما سأله أبو ذر: قلت: يا رسول الله، أيّ الأعمال أفضل؟ فأجابه، ثم قال: قلت: يا رسول الله، أرأيتَ إن ضعفتُ عن بعض العمل؟ قال: «**تكفّ شرّك عن الناس؛ فإنها صدَقة منك على نفسك**»[1].

إن قصة نزار تقول: إن هِممَ الكبار لا يُشترط لها شيءٌ سوى قلبٍ يخفق بحب هذا الدين، والحدب عليه وعلى أهله، والرغبةِ في تقديم شيء، على قاعدة: «**لا تحقرنّ من المعروف شيئًا**»[2]، وقاعدة: «**يا نساء المسلمات، لا تَحقِرنّ جارةٌ لجارتها، ولو فِرسَن شاة**»[3].

(١) رواه مسلم (رقم١٣٦).
(٢) رواه مسلم (رقم٢٦٢٦).
(٣) رواه البخاري (رقم٢٥٦٦)، ومسلم (رقم١٠٣٠).

من أرشيف الجوال

٢٧/ ٥/ ١٤٣٧هـ

لا يختلف اثنان في الأثر الذي أحدثه هذا الجهاز الصغير، الذي كان أوّل ظهوره وسيلةَ اتصال، ثم أضحى جهازًا تعلّقت به أعمالُ الكثير من الناس.

ولما ابتليتُ باستقبال أسئلة الناس صوتيةً ومكتوبة؛ صار مخزونُ الذاكرة عندي وفي جهازي يحملُ عددًا كبيرًا من الرسائل التي تصل إلى حدّ التباين في مضمونها أو أسلوبها، بعضها طريف، وبعضها محزِن، وبعضها مشجّع، وبعضها ناصح ومذكّر، وبعضها واعظ، فاجتمع من ذلك رصيدٌ أحببتُ أن أشير إلى بعضه هنا؛ لأُشْرِكَ القراءَ الكرام معي في الدروس التي يمكن استفادتها من هذه الرسائل في التعامل مع الناس.

لقد تعلّمتُ -ولا أزال- أن مَنْ خالط الناسَ -ولو كانت خلطته (خلطةً آلية) أو (إلكترونية)- فلا بد أن يوطّن نفسَه على الصبر على الأذى، وهو شيء متيَقَّن لا متوقَّع، وهؤلاء المُؤْذونَ وإن كانوا يكدّرون صفو الإنسان -خاصة في بدايات التعامل معهم- إلا أنهم يعطونه دروسًا في الصبر، فإن لم يتعلم هذا الدرسَ فسينسحب من ميادين العطاء مبكّرًا،

وهنا يستذكر الإنسانُ ذلك الحديث المشهور، الذي يُقرِّر سنةً من السنن الإلهية في المخالطة: «**المؤمن الذي يخالط الناسَ، ويصبر على أذاهم، أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم**»[1].

تتنوع صورُ هذا الأذى والرهق، ما بين عبارات نابية وخشنة جدًّا، بل قد تصل إلى اللعن والدعاء عليك بالنـــار! وما بين اتصالات متتابعة قد تصل إلى أكثر من ثلاثين اتصالًا في ســـاعة واحدة، وقد يصحبها رسائلُ تؤكد خطورةَ الســـؤال وأهميته، وأنه (ضروووووووورررررري)! -هكـــذا كتبها أحدُهم-، وإذا بالأمر لا يســـتحق ذلك قطعًا، بل يمكن تأجيلُه أيامًا عدة، وليس ساعات فقط، ولكن لا بد من الصبر.

ومن ذلك: الاتصال في ســـاعاتٍ متأخرة من الليل، وما يصحبُه من لومٍ وعتابٍ: لماذا لا ترد؟! وكأنه يُفترض من طالبِ العلم أو الشـــيخ أن يكون مستيقظًا أربعًا وعشرين ساعة ليَرُد!

ومن ذلك أن يتحول المتَّصِل -الذي هو في الأصل مســـتفتٍ يطلب الجواب- إلى مجادِلٍ ومجانفٍ لما ينبغي أن يكون عليه الســـائلُ من الأدَب مع مَنْ قصدَه بالســـؤال؛ فأتذكر مرةً أن رجلًا اتصل في الحج يَســـتفتي عن مســـألةِ دفع الأضحية لتُذبح في الخارج؟ فابتـــدأتُ جوابي بأنه إذا لم تكن عندك إلا هي فلا ينبغي إخراجُها، وإن كان لديك... فلم أستكمِل جوابي حتى قال لي: أنا ما ســـألتك حتى تقـــول لي: عندك ولا ما عندك! جاوبني: حلال، ولا حرام!

---

(١) رواه أحمد (رقم٥٠٢٢)، والترمذي (رقم٢٥٠٧)، وابن ماجه (رقم٤٠٣٢)، وحســـن ابن حجر إسناد ابن ماجه في الفتح(١٠/ ٥١٢).

أرشيف الرسائل والاتصالات يُسْـمِعك من السائلين ما يتصدّع له الفؤاد، ويَندى له الجبين، هذا بيتٌ يشـكو تسلّط عائلٍ جائرٍ، وآخر يئن من تورطِ كاسِـبهم بالمخدرات، وزوجةٌ تشكو ضربَ زوجِها وتعنيفه، وأُمّ تشـكو عقوقَ ابنها الشديد، في سلسـلة من المصائب والآلام التي تحرّك لسانَك بالشكر لله تعالى على نعمةِ العافية.

ومع هذا كلّه فأرشـيف الجوال يحمل في طياته الكثـيَر من الخير، بل هو الغالـب على الناس ولله الحمد، فكم أفادني شـخصيًّا في مراجعةِ حديث، أو تحريرِ مسألة، أو التثبّت من قول، وغيرها من الفوائد الجليلة!

لا تَسلْني عن مشاعري حينما أكونُ سببًا في تفريج كربةِ سائلٍ بجوابٍ يسيرٍ عن شيءٍ كان يظنه عظيمًا!

ولا تسلْني عن الفرح الذي يَغشى القلبَ حينما أسمع دعواتٍ صادقةً من سائلٍ شعَر أنك فتحتَ له صدرَك، واستمعتَ لكل أسئلتِه التي كانت تشكّل همًّا بالنسبة إليه.

من الرسـائل التي لا يزال صداها في ذهني: أنَّ أحدَهم اتصل يسأل عـن كيفية الخلاص من الكبائر التي يقع فيهـا؟ ونظرًا لخبرتي المحدودة بأسـئلة الناس فإننـي أطلب منهم تحديـدَ بعض هـذه الذنوب -وأنا لا أعرف السائلَ بالتأكيد- لأن بعضَهم يظن أنها كبيرةٌ، وليست كذلك، فقال لي بالحرف الواحد: «سـألني عمرُ، عن ذنوبي؛ فسالتْ عَبرتي حياءً منه، فكيف بتقرير الله لي؟!» فوالله لقد وعظني برسالته وهو لا يشعر! إي والله، فكيف بسؤال الله لنا عن ذنوبنا التي نستتر بها، ونحن يومئذ كما قال ربنا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

في غرفة العناية المركزة

٥/٦/١٤٣٧هـ

إذا قُدِّرَ لك أن تزور غرفةَ العناية المركزة فقد ساق الله لك خيرًا كثيرًا، وواعظًا صامتًا أبلغ من عشرات المواعظ!

إن دخولَ المريض هذه الغرفة هو مشهد من مشاهد الضعف البشري والقدرة الإلهية. في كثير من الحالات يقف الأطباءُ حائرين أمام الحالات التي أمامهم، يرون جسدًا تدبّ فيه الروح، وغاية ما يقدرون عليه هو المحافظة على كل ذرة صحةٍ بقيت فيه، ومراقبة الشاشات التي تُعطي المؤشرات عن القلب والتنفس وبقية الأعضاء!

حين تزور مريضًا فيها، وتتذكر قوّة بدنه، وقوة حجّته، وشبابَه وسعيه في هذه الحياة، ثم تراه ممدّدًا على هذا السرير، يفرحُ زوّرُاه أن يسمعوا منه كلمة، أو أي إشارة تدل على حياةٍ مستقرةٍ؛ حين يكون ذلك تتوارد عليك جملةٌ من الأسئلة: أين ذهبت تلك القوى الحسيّة والمعنوية؟ أين قوةُ حجّته؟ أين ذهبت القدرةُ على الكلام؟ أين العضلات المفتولة؟ والصوت الجهوري؟ والحديث المتتابع؟!

عجبًا لهذا المخلــوق حين يتكبر! وعجبًا له حين يطغى، ويتجبر حالَ صحّته! ليته يَرى صورتَه وهــو ممدّد على سرير المرض الذي لا يَقدر فيه على شيءٍ سوى التنفس أو إشارة بالعين أو بالأصبع.

ليت شــعري ما الذي يجول في صدور نُزلاء هــذه الغرَف من العِبَر والوصايا لزوّارهم؟

أظنهم لــو تكلّموا لقالــوا: لقد رأينا مصــداقَ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[1].

ولو تكلم أحدُهم لقال ما ورد في الحديث المشهور: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابَك قبل هرمك، وصحتَك قبل ســقمك، وغناكَ قبل فقرك، وفراغَك قبل شغلك، وحياتَك قبل موتك**»[2].

ولو أنهم رأوا شــخصًا من المتقاطعين مــع أقاربهم أو أصدقائهم من أجل لعاعة من الدنيا لقالوا: لقد عرفنا أن الدنيا كلَّها -بأموالها ولذاتها- لا تُساوي فراشَ السرير الذي نفترشه، أو نلتحفه! فكيف نجح الشيطانُ في التفريق بينكم؟!

هذه الغرفة تُزهّد المغترين بالمكاســب المحرّمــة، ولو نطقت أسِرّتها لقالت: هَبُوا أنكم تحايلتم على الربا، أو الرشوة، أو السرقة من المال العام، أو أي مكســب محرّم، بالله زوروا هذه الغرفــةَ لتنظروا هل تنفعكم هذه المكاسب إذا وُضعتم على هذه الأسِرّة؟ وهل ستتقربون بتلك المكاسب؟ ولئن سَلِمْتم فيما بينكم وبين الله؛ فماذا تصنعون بحقوق الخلق؟

---

(١) رواه البخاري (رقم٦٤١٢).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (رقم١١٨٣٢)، وفيه إرسال.

وإلى المطْلِقين لأبصارهم وأسماعهم في الحرام، ويريدون واعظًا مباشرًا، بالله زوروا هذه الغرَف، لتنظروا إلى الحال التي يؤول إليها سمعُ الإنسان وبصرُه إذا أدخل في هذه الغُرَف! ماذا لو لاحتْ لكم تلك الصورُ المحرّمة؟ والمسامعُ الآثمة؟ أتراكم تسمرون أعينكم؟ أو تُلقون أسماعكم لها، وتقولون: عجزنا عن مجاهدة نفوسنا؟!

وفي المقابل: فإن زيارةَ هذه الغرفة لتكشف لك عن أثر الصلة بالله حال الرخاء على أحوال بعضِ هؤلاء المرضى، فكم رأى الناسُ من آثار السكينة والطمأنينة على مرضَى يُعانُون ما يعانون من أمراض خطيرةٍ ومؤلمة كالسرطان، وهذا مصداق قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصيته للأمة -التي نقلها لنا الحبرُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة**»[1]، وأي شدّة أعظم من هذه في حال الحياة سوى شدّة الموت وسَكرته؟

ومن آثار الرضا التي تَلمحها في حال بعض أولئك المرضى: ما يقع مِن يُسر وسهولة في نزع أرواحهم؛ فتُسْتَلُّ كما تُسْتلُّ الشعرة من العجين! فمن كان له لبٌّ فليستعدّ لهذه اللحظات التي لا بد منها، سواء دخل (غرفة العناية المركّزة) أم لا!

اللهم، فاكشف ضُرّ مَن دخلها من إخواننا المسلمين، وأسبغ الرحمةَ والرضوانَ على مَن غادروها إلى القبور، وارزقنا الاعتبار، وأحسِن مُنقلَبَنا إليك.

(١) رواه الترمذي (رواه٢٥١٦)، وأحمد (رقم٢٨٠٣) واللفظ له.

في غرفة تغسيل الموتى

١٢/٦/١٤٣٧هـ

تحدثتُ في المقالِ السابق عن بعض مشاهداتي في غرفة العناية المركزة، التي ترددتُ إليها بضعةَ أيام إبان مرض شقيقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم انتقلنا بعد وفاته إلى الغرفة الأخرى ألا وهي: غرفة تغسيل الموتى، أو كما يحلو لبعضهم تسميتها: غرفة إكرام الموتى.

تلك الغرفة التي تباعدك من الدنيا، وتدنيك من الدار الآخرة، وتَعِظك بصمتها العجيب، بل كل ما فيها يَعِظ! أكفانها، وأعواد الجنازة فيها، وأدوات تجهيز الميّت. تتوارد على ذهنك أسئلةٌ كثيرةٌ وأنت تقلِّب طرفَك في سقفها وجدرانها؛ يا تُرى كم جلس على هذه الأعواد مِن ميّت؟ مَنْ آخرُ شخصٍ غُسّل عليها؟ ومَنْ الميتُ القادم الذي ينتظر دورَه؟ أهو طفلٌ، أو شابٌّ، أو كهلٌ، أو شيخ كبير؟ أهو امرأةٌ، أو رجل؟ هل سيكون القادم شخصًا قد سبق موتَه مرضٌ ينبّهه، ويُوقظه، ويجعل له فرصةً للمراجعة؟ أو هو شخصٌ مات فجأةً دون مقدمات؟ سبحان مَن يَعلم!

حين تُغسّل هذا الميّت يلوح لك كمالٌ مِن كمالات الله، فتردِّد بلسانك وقلبك: سبحان الحيّ الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون!

وحين تغسّله، وتنظر في عناية الشرع المطهَّر بتنظيف الميّت، والعناية بتطهيره قبل دفنه، والتشديد على سَتر عورته، وتطييبه؛ تحمدُ الله على الهداية إلى هذه الشريعة المطَهَّرَةَ المطهِّرَةِ، التي تتفق مع الفطرة، وتُوجب العنايةَ بهذا الإنسان لا أقول: منذ ولادته؛ بل قبل ولادته حتى يُوارَى في الثرى.

وحين تُغسّل هذا الميت تتذكر أنه كما قدِم إلى هذه الدنيا عاريًا، لا يستطيع لنفسه ضرًّا ولا نفعًا؛ فهو كذلك حين يُغسّل، مهما كانت قوّته حالَ الحياة، يديره المغسّلون، ويقلّبونه، ويحرّكونه، لكنه هذه المرّة جسدٌ لا روح فيه، فأين المعتبر؟

ولئن كان هذا الميّتُ قدِم الدنيا عاريًا فسيغادرها كذلك إلا من ثلاثة أثواب أو خمسة، لا أكمام لها ولا أزرار، ولا سراويل، ولا قُمص!

ولو أنّ تاجرًا من التجار أوصى أن تكون الثيابُ التي يكفّن فيها مِن أغلى أنواع الأقمشة؛ لم ينفعه ذلك بشيء، فالقدوم على الله لا ينفع معه إلا ما قاله الله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وحين تغسّلُ الميّت، فإنك تزداد يقينًا أن الموت هو الكأسُ التي لا بدّ مِن شربها، والبابُ الذي لا مناصَ من دخوله، فليت شعري كيف سيكون القدوم على الله منه؟ هل سنقدُم عليه وقد رضيَ عنّا أم لا؟ هل

نقْدُم عليــه خفيفةً ظهورُنا من الذنوب والآثام؟ أم ســنقْدُم وقد تحمّلنا أوزارًا ســنندم عليها لحظةَ خروجنا من قبورنا، يــوم يقوم الناسُ لرب العالمــين، ويوم يقــال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

إن هذه الغرفة لتنادي المتقاطعين: تصالحوا قبل هذه اللحظة!

وتقول لأبناء الستين والسبعين: ها قد وصلتم إلى معترك المنايا، فبماذا استعددتم لهذا المصرع؟

وتُنادي الشباب المفرّطين الذين يؤمّلون الستين والسبعين: اعتبروا! فكم ركِب عــلى أعواد الجنازة قبلكم من شــباب! هذا بســكتةٍ، وذاك بحادث.

إن من رحمة الله بعباده أن جعل النســيانَ للمُصَاب سببًا للسَّلوة، لكن الذي لا يصحّ: أن ينقلب هذا النســيانُ إلى غفلةٍ تجعل الإنســانَ يعاوِد برنامجَ التقصير والغفلة عن المصير، بل العاقل يستفيد من هذه المواقف التــي تمرّ به لتكون ســببًا في إصلاح آخرته، وترقيعِ مــا انفتق من ثياب الصلاح التي تخرّقت بذنوبٍ بينه وبين الله، أو بين عباده.

على شفير القبر

١٩/ ٦/ ١٤٣٧هـ

إذا أردتَ أن ترى مظهرًا من مظاهر الأخوّة الإسلامية فاحضر دفنَ جنازة؛ لترى جموعَ الناس تُقْبلُ من داخلِ البلد وخارجه؛ لتشارك المصَابَ في مصيبته، وبعضُهم قد لا يَمتُّ إلى المصاب بِصِلةِ قرابةٍ أو جوارٍ أو صحبةِ عمل.

في المقبرة ترى عظمةَ هذا الدين في صيانةِ التوحيد وحمايته من كل ما يكدّره، أو يكون سببًا في خدش صفائه، في صورٍ متنوعة: كمنع الصلاة عند القبور، أو الصلاة إليها، أو الذبح عندها، ومَنْعِ رفْعِ القبور إلى مستوى بارزٍ عن بقية الأقبُر، كما في حديث عليّ رضي الله عنه ـ في وصيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له ـ: «**ولا قبرًا مشرفا إلا سوّيته**»[1].

وترى صورةً من صور تكريم المسلم بعد وفاته؛ بدءًا من تغسيله وتكفينه، ومرورًا بطريقةِ دفنه ومنعِ الحيّ من الجلوس على القبر؛ فحرمة المسلم ميّتًا كحرمته حيًّا.

ولا أظن مَن يحضر هذه الشعيرةَ مشاركًا في الصلاة واتباع الجنازة، إلا ويلفت نظره بعضُ الملاحظات والأخطاء التي تصدر من بعض الناس،

(١) رواه مسلم (رقم٩٦٩).

لا عن عمد -إن شاء الله- وإنما غالبها عن غفلة، أو جهلٍ بالحكم، يحملهم على ذلك حبُّ الخير؛ لذا أحببتُ التنبيه على بعض الأخطاء التي تقع من بعض الناس؛ لعله يُسهم في تقليلها وتجنّبها، فمن ذلك:

- مزاحمة أهلِ الميت وذويه على القبر، ويَكثر هذا من بعض الصغار -أصلحهم الله- والأَوْلى أن يُنَبّه الكبار، ويُعَلّمَ الصغار على احترام هذا الحق، ويتأكد إذا كان الميت امرأةً.

- التزاحم الشديد عند الدفن، وظنُّ بعضهم أن أجر اتباع الجنازة مرتهن بالمشاركة في حثو التراب، وهذا وهْم، وهو يسبب إرباكًا للمشتغلين بالدفن كما هو معلوم.

والثابت في السنة الصحيحة أن أجر القيراطين معلّق بأمرين: الصلاة عليها، ثم تشييعها، وليس فيه المشاركة في الدفن، وربما تعلّق بعضُهم بحديثٍ ورد في هذا الباب، ولا يصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].

- الإصرار على معانقة أهل الميت، وهذا قد يُحتمل فيمن قدِم من سفر، أو لم يرَهمْ منذ زمن، لكن ما الحاجة لذلك من قِبَل جيرانه، أو مَن شاهدهم قبل موت الميت بساعات أو وقت قريب؟ كلٌّ من عانى الوقوف للعزاء، وتعزية المئات يُدرِك العنَتَ الذي يَلحق المعَزّين بمثل هذا العناق الذي لا حاجة له.

- المقبرةُ أحدُ مواضع الاعتبار، والتفكر في المصير المحتوم، وهي أحد

(١) إن شئت أن تنظر في علة هذا الحديث، فراجع المسألة رقم (٤٨٣) من علل الحديث لابن أبي حاتم (٢/ ٤١٧).

المواضع التي كان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يؤثِرون فيها الصمتَ إلا لحاجة، ومع هذا فإن بعضَ الناس -وهو مشتغل بدفن الميت- يرتفعُ صوته دون حاجة، مع أن جميع الاحتياجات المتعلقة بدفنه قريبة، يمكن الوصول إليها بالإشارة أو بصوتٍ منخفض.

وأسوأُ من ذلك أن تَرى بعضَ الناس يتحدث فيها بحديث الدنيا، أو يقهقه، ويضحك، بل قد سمعتُ شبابًا يتحدثون في الرياضة والناس منشغلون بالدفن!

وحدثني مَن أثق به أنه سمع من يتحدث بالجوال على شفير القبر في قضايا البيع والشراء! أفي هذا المكان؟!

ومنهم من يكدّر صفوَ التأملِ والسكون بأصواتِ نغماتِ جوّاله المزعِجَة، وبعضُها موسيقا محضة!

وإنني أتساءل: إذا لم يكن وقتُ التشييع فرصةً للتأمل والتفكر، والبعد عن ملذات الدنيا الملهية؛ فمتى نعتبر، ونتذكر؟

وقد قال بعضُهم: أصبحتُ لا أجدُ ما كنتُ أجِدُه قديمًا في أوقاتِ تشييع الجنائز، فلقد كان حضورُ دفنِ ميتٍ واحد كفيلاً بإيقاظنا من غفلتنا أيامًا عدة، وتنشيطنا للطاعة بِضع ليالٍ، وأما هذه الأيام فصرنا نشهد جنائز عدّة في صلاة واحدة، ولا نكاد نجد أثرًا، فصار الإنسانُ يحتاج إلى زيارةٍ مقصودة-من دون تشييع- يخصّ بها المقابر، لعل القلبَ يَلين، والنفسَ تتذكر، ويذهبُ عن العينِ قحطُها وجمودُها، وتتذكر الآخرة. فاللهم، رحمةً من عندك، تُصلح بها قلوبَنا، وترزقنا الاعتبار، وتُحسِن بها منقلبنا إليك، وتنوّر بها على أهل القبور قبورَهم.

في مجلس العزاء

٢٦/٦/١٤٣٧هـ

يذكر لي أحدُ الإخوة أن فلبينيًّا يعمل في إحدى الشركات في السعودية، فتوفي قريبُ زميله في العمل، فذهب ليعزي زميلَه وأهلَه، فدُهش من كثرة الحضور، وقال لزميله: هل كل هؤلاء المعزين أقاربك؟ قال: لا، بل أقاربي لا يمثلون إلا أقلّ من ٢٥٪ من هذه الأعداد! فقال: والبقية؟ قال: هؤلاء إخواننا في الدين، جاؤوا مواسين، ومخففين المصاب بالدعاء والشد من الأزر، فسأل الفلبينيُّ زميلَه عن كيفية الدخول في هذا الدِّين.

التعزيةُ هي صورةٌ من صور الترابط بين أفراد المجتمع المسلم، وكم خفّفتْ من مصابٍ كان وقْعُه على المصاب كبيرًا!

ما أجمل تلك الدعوات التي يقولها المعزّي للمُعَزَّى: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب»[1] ونحوها من العبارات التي تزيد الإنسانَ من اليقين بالصبر، والتذكير بحقيقةِ المصير، والحثّ على لزوم الاحتساب، الذي يزيد من أجور المصاب.

(١) رواه البخاري (رقم١٢٨٤)، ومسلم (رقم٩٢٣).

والتعزيــة كغيرها، يعتريها بعــضُ المنغّصات التي تكــدِّر صفوَها، ويقضي واجبُ النصح التنبيهَ عليها، ومن ذلك:

من المعلوم أن الجلــوس للعزاء من المســائل المختَلَف فيها بين أهل العلــم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وليس مرادي ذِكر الخلافِ فيها، بل المقصود التذكير بأنها من مســائل الاجتهاد، فلا ينبغي التثريبُ على مَــن أخذ بأحدِ القولين، شريطةَ تجنّب بعض المحاذير الشرعية -فيمــن اختار القول بالجلوس- كصنع أهل الميــت الطعامَ للمعزّين، أو الإسراف فيــما يقدّم لهم، وكأن الناسَ في عرسٍ لا عزاء!

التعزيةُ فرصةٌ لتقارب قلوب الأقارب، وتقليص مســاحات الجفاء -إن وُجِدت- فليس من المقبول أن تنقلب هذه المناســبةُ إلى خصوماتٍ أو شقاقٍ مع أهل الميّت بسبب رغبةِ هذا وذاك في تقديم العشاء أو الغداء للمعزيّن وأهل الميت.

يَحْسُــنُ بالمصاب إذا لم يرَ بعضَ من يتوقع حضورَهم أو اتّصالهم مِن أقاربَ أو أصدقاء أو من لك حقٌّ عليهم أو زملاء عمل أن يلتمس العذرَ لهم، فقد يكون الخبر لم يبلغهم، أو مســافرون إلى أماكن بعيدة، أو مرضى لا يســتطيعون الحضورَ ولا الاتصال، وكم حملت الأخبارُ مِن أعذارٍ لا تخطر على بالِ كثيرٍ منا!

أتذكّرُ أن أحدَهم عاتبَ شخصًا على غيابه، فقال المعاتَبُ: لقد أجريتُ عمليــةً جراحيةً في القلــب وأنت لا تَعلم، ولم تتصــل بي، ولم أعاتبك! فاعتذر المعاتِبُ بأنه لم يعلم، واســتحى، فقال له صاحبُه: الناسُ كذلك لهم أعذارٌ قد لا تَبْلُغُكَ، وليس في كل حينٍ يســتطيع الإنسانُ ذِكر عُذْره، فما أحسن أن نُوسّع دائرةَ العذرِ فيما بيننا قدْرَ الإمكان!

وليس من المناسب أن تَتضاعَف المصيبةُ بحفر أخاديدَ من العتابِ واللومِ بين المصابِ ومَن سبق ذِكرهم، فإن هذا من مداخل الشيطان، ويمكن تجاوز ما قد يقع في النفس بمصارحةٍ من يُستَكثر منهم التخلُّف، لكن بعدَ أيام من المصيبة، فإن العاقل مَن التمسَ الأعذار، فإن لم يجد فليقل: لعل لهم عذرًا خَفِي عليّ.

-وفي محيط النساء، فإن بعضَ الأخوات حين تحضَر للعزاء لا تحقِّق المقصود من العزاء -وهو المواساة والتخفيف- بل تُخالِفه، فتكون بلسانِ حالها ومقالها مهيّجةً على تجديد الأحزان، وتعميقِ المصاب، ولمن تَعرف مِن نفسها أنها من هذا النوع الذي لا يَحتمل المصابَ فيمكنها الاعتياض عن ذلك باتصالٍ، أو بنقلِ المواساة برسالةٍ بالجوال، أو بغير ذلك من الوسائل المتاحة.

- قد يحصل أن بعضَ الناس لا تتيسر له التعزيةُ في وقتها المعتاد، فإذا ذهبتْ، وبرَدَت حرارتُها على قلوبِ أهل المصاب، فلا يَحسن التعزيةُ هنا، بل لا تُشرع؛ لأن مقصدَ التعزيةِ هنا انتهى، ومِن جميل ما يُذكر ههنا: أن رجلًا لقي آخر قد أصيب بمصيبةٍ، فأبطأ عن تعزيته، فقال: لولا أن تجديد التعزية يجدد جزعًا في المصيبة، لعزيناك عمن مضى![1].

وختامًا، فما أحسن ما قاله بعض السلف معزيًا رجلًا مات أبوه: يا هذا، إن كانت مصيبتك في والدك أحدثتْ لك عِظةً في نفسك، فنِعم المصيبة مصيبتك؛ وإلا فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بأبيك[2].

(١) التعازي لأبي الحسن المدائني (ص٩٨).
(٢) التعازي لأبي الحسن المدائني (ص٣٦).

من مسجد الطين إلى الدرس العالمي

٤/ ٧/ ١٤٣٧هـ

في صيف عام ١٤٠٥ هـ تقريبًا اصطحبني أحدُ طلاب شيخنا العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى درسه في عنيزة، فلم يرُعْني إلا وأنا في وسط جدرانٍ طينية تحيط بالطلاب! وشـيخُنا يشرح في كتب عدة، منها: كتاب (منتقى الأخبار) للمجد ابن تيمية، وكان ذلك في صيف رمضان اللاهب، وكان عـدد الحضور قليلًا! فقفزتْ إلى ذهني تسـاؤلاتٌ كثـيرة، بدّدها جلَدُ الشيخ في تعليم الطلاب، وحرصُه على تنبيه الشارد، وإيقاظ من قد يدبّ النعاسُ إلى عينيه.

مضت السنوات، وتشرفتُ بعدها بخمسـة أعوام تقريبًا بالالتحاق بدروس هذا العالم النحرير، بعد أن انتقل شيخُنا إلى الجامع الكبير بعنيزة القائم حاليًّا باسـم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ واسـتمرت الطريقةُ نفسها، مع زيادة مكبّر الصـوت ليبلّغ الجمع الكثير من الطلبـة، الذين توافدوا عليه من أنحاء شتى من العالم -فضلًا على منطقة القصيم- وكانت تلك الدروس تسـجّل في أشرطةٍ بجهود فردية، إلى حدود عام ١٤٠٧ هـ تقريبًا، حتى دخلت بعضُ التسجيلات الإسـلامية، فانتظم الأمر، لكنه لم يخرج عن

حدّ الممكــن في ذلك الوقت، إذ تبقى بعضُ الــدروس أيامًا عدة، حتى تنتهي من التصفية وفق المعهود، ثم تنزل في السوق.

انتقلت الدروس بعد ذلك إلى مستوى أكثر تفاعلًا من كونه تسجيلًا فقــط إلى نقله مباشرة عــبر الهاتف لبعض الجمعيــات الخيرية في بعض دول الخليج، حيث استمعوا لشرح شيخنا لرسالةٍ مختصرة في ليالٍ عدة، فكان في ذلك فرصة لأولئك المســتمعين حيث يتاح لهم السؤالُ مباشرة، ويسمعون الجوابَ كذلك، وبقي الأمرُ على هذا الحال حتى توفي شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ الإمكانات التقنية لم تُتح أكثر من هذا.

وبعد ســنتين أو ثلاث من وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بدأ ما يُعرف بالبث المباشر للــدروس والفعاليات العلمية، فصار المتابعــون لهذه الدروس من كل مناطق العالم، وما زلتُ أتذكــر أول ما بُثّت بعض الدروس لبعض كبار العلــماء، وصارت تأتيهم أســئلةٌ مباشرة في أثناء الدرس، من روســيا، وأوروبا، وأمريكا، فضلًا على البلاد الإسلامية والعربية، والدهشةُ تعلو محيّا أولئك الأشياخ، وألســنتُهم تلهج بالحمد والشكر على تسخير تلك التقنية لإيصال العلم بأقل التكاليف.

وحين انتشر فنٌّ آخر من فنون نشر العلم، وهو ما يُعرف بـ (الدوراتُ العلميــة) في مناطق المملكــة- وخاصة في الإجــازة الصيفية- صارت الدروسُ التي تُنقل بالمئات، فحصل من ذلك خيرٌ كثيرٌ، لكن بقي جانبُ التلقــي بالمعنى المذكور في كتب العلم ناقصًا، إذ يُلقي الشــيخُ درســه، ويجيب عما تيسر من الأسئلة، ثم ينصرف.

فانبثقت فكرةُ الـدورات العلمية المنهجية، التـي تُراعي التدرجَ في الطلب، مع طول المدة نسـبيًّا، على حدّ قول الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إن هـذا العلم إنْ أخذتَه بالمكاثرة غلبَك، ولم تظفر منه بشيء، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذًا رفيقًا؛ تظفر به**»[1]، فصارت الدورةُ تمتد سنةً أو سنتين أو ثلاث، يتلقى فيها الطالبُ متونًا شتّى، ويتخرج بشيء من التكامل في علوم الشريعة، وبعضِ العلوم المساندة لها.

ومع انتشـار ما يُعرف بـ (الأكاديميات التعليمية) التي يسّر الله عن طريقها بثّ العلم عبر ما اصطلح عليه بـ (بالمنصّات التعليمية)، لعشراتِ بل مئاتِ الآلاف من الراغبين فيه، ومـن جميع أنحاء العالم، و(أكاديمية المجد) من أكبر الشواهد وأقواها على ذلك.

كل هذا جعل الدرسَ يكتسـب صفة العالميـة، فهل الواقع الموجود يتلاءم مع هذه الصفة؟

من المعلوم أن هذه المنصَّات التعليمية تكتسب قوتها من ثلاثة أمور:

١. المشايخ الذين يدرّسون تلك المتون.

٢. طريقة إلقاء تلك الدروس.

٣. مراعاة المتحدث لصفة العالمية، واستشعار أن المستمعين من فئات شتى، ومذاهب فقهية متفرقة، بل إن بعضهم قد يكون من بيئات مخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، ولا أقصد بالجملة الأخيرة مداهنتَهم في ذلك، بل أن يكون الحديث العلمي مقرونًا بالرحمة، وبيان الحق، دون ألفاظٍ قد تجرح، أو تُسيء إلى المتحدِّث قبل السامع.

(١) حلية الأولياء: (٣/ ٣٦٤).

ومما تُجدر العناية به -في حديثنا عن عالمية الدرس- أمور:

الأول: مراعاة الحديث باللغة العربية السهلة، بعيدا عن الألفاظ العامّية التي قد لا يَفهمها بعضُ العرب فضلا عن غيرهم.

الثاني: أن تكون هذه الدورةُ على مستويات متعددة، تنطلق في ذات الوقت، فدورةٌ تراعي المبتدئين، وثانية تراعي المتوسطين، وأخرى للمتقدمين نسبيًّا.

الثالث: في الدول الإسلامية غير العربية، ذات الكثافة العالية سكانيًّا -كأندونيسيا، وباكستان، وتركيا، والجمهوريات الإسلامية في شمال شرق آسيا- أن توجه لهم دورات تراعي احتياجاتهم هم، بحيث يُراعَى فيها تدريس بعض المتون ذات الصلة بتلك البيئات.

الرابع: يُستحسن أن يكون هناك برامج مصاحبة لهذه الدورات، تُعْنى بالتربية والتزكية، فهذه من أعظم ثمار العلم ومقاصده، وما رُزئتِ الأمةُ اليوم في واقعها العلمي والدعوي، إلا بفقد كثيرٍ من جوانب التربية والتزكية، جعلتْ من بعض المنتسبين للعلم شماتة للأعداء، وأضحوكة لهم، بل حُقّ على بعضهم قول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، وإنه ليرجى -إذا فعلت أمثال هذه البرامج- أن تتحقق بقية الآية: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]. اللهم، اجعلنا ممن هديتَهم صراطَك المستقيم.

وداعًا خالد[1]

١١/ ٧/ ١٤٣٧هـ

بقيتُ أكثر من شهر، وأنا أكبح جماح قلمي عن الكتابة عن خالد...

خالد الذي غيّبه اللحدُ، وطوته يدُ المنون في كهولته...

خالد الذي عشتُ معه في ملاعب الصِّبا، بلهوها وعبثها ومشاغباتها الطفولية، التي صارت -بعدُ- جزءًا جميلًا من ذكريات تلك المرحلة...

خالد الذي امتدت رحلتُنا معًا أكثر من خمسةٍ وأربعين عامًا...

لقد كنتُ أقرأ أبيات الخنساء الشهيرة في رثاء أخيها صخرٍ، فلما مات خالد قرأتها بلغة أخرى، ونفْسٍ كلْمى، وأدركتُ - كما لم أدرك من قبل- معنى قولها يوم قالت:

ألا يا صخرُ لا أنســـــاك حتى

أفارقَ مهجتي ويُشـــقّ رَمْسـي

(١) توفي شقيقي خالد فجر السبت ٣/ ٦/ ١٤٣٧هـ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة.

وما يبكـون مثــل أخي ولكـن

أعـزّي النفـسَ عنه بالتأســـي

لقد كانت سنواتُ حياته كلها شــيئًا، والسنةُ الأخيرةُ من حياته شيئًا آخر، إنها رحلة الصراع مع المرض، الذي لم يمهله طويلًا.

بدأ في منتصف عام ١٤٣٦هـ يشعر بآلامِ المرض، وبدأتْ في ازدياد، لكنه لم يخطر بباله ولا نحن -أهلَ بيته- أنه هو المرض الأخير...

دخل رمضان الماضي، وهو يجاهد نفسَه على الأكل والشرب، كما كان يجاهدها على الصوم، فصام رمضان كلّه إلا يومين اثنين، مع أن السرطان -في تلك الأيام قد تقدّم انتشارُه- كما أبلغنا الأطباءُ بعدُ.

في ليلة ٢٧ من مضان يمّم وجهَه شطر الرياض ليفحص، فإذا بالخبر الفاجعة! إنه المرض المخوف، هنا بدأتْ رحلةٌ جديدةٌ من العناء، ورحلةٌ أخرى مع الصفاء.

أما العناء فمع هذا المرض، الذي يَشعر القريبُ من مرضاه بالأوجاع تتابع، فكيف بمن يكتوون بنارِه؟

وأما رحلةُ الصفاء فمع قلب خالد الذي -أحســبه- ذاقَ لذةَ مناجاة الله، وشعر بطعم الوحدانيةِ له، وطوّف في جنّة الرضا، وترقّى في مدارج البلاء، وقوي عندَه حسنُ ظنّه بربه، والصبرُ على قضائه وقدَره، والرضا باختيار خالقه ومدبّر أمره، تلقّى الخبرَ بالصبر والاحتســاب، والجدّ في فعل الأسباب.

المريــضُ حين يبدأ رحلةَ المرض فإنه لا يمــرض وحده، وإذا كان في مرضٍ كهذا فإن أهل بيته يشــتغلون به ومعه، وهكــذا كان، فالوالدان

والزوجة، وبقيةُ أهل بيته، كلهم في شغلٍ مع ما أصاب خالد. بدأت رحلةُ العلاج المضنية، بجرعاتِ الكيماوي في شهر شوال، حتى توقّف عن تلك الجرعات قبيل وفاته بشهر ونصف، حين فقد الجسمُ قدرتَه على تحمّلها.

لقد بلغ المرضُ منه مبلغًا عظيمًا، رأيتُ أثَرَه في تقاسيم وجهه، ويُبُوسِ جلده، ونحول جسده، وفي حديثه عن المشقة التي كان يجدها عند قضاء الحاجة، ولم يذكرها لي إلا لما ألححتُ عليه في الذهاب إلى مكة المكرمة قبل موته بشهرين.

الموتُ هو سنةُ الله في خلقه، لكن المهم كيف سنموت؟ وبمَ نلقى الله؟

أذكر لأخي حرصَه الشديد على برّ والديه، ولا أنسى كم كان يذكّرني بالهدية، والصدقة، وتفريغ أكبر وقتٍ ممكن للجلوس معهما، ومراعاة كبَر سنّهما -متّع الله بهما على حسن عمل- ولكم غبطتُه على أن مات ووالداه راضيان عنه، ويدعوان له، وكم سمعتُ والديّ يعلنان الرضا عنه، ويدعوان له بالجنة، فغبطته، وقلتُ في نفسي: هذه رحمة والديه، فكيف برحمة الله؟!

وأذكرُ له صبرَه العظيم على ما أصابه، وعلى الرغم من شدّة الألم عليه، التي كانت تتضاعف حين كان يأخذ جرعات الكيماوي، والتي كانت بمثابة الأسيد الذي يلتهب نارًا في جوفه -كما حدثني رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فلم لم أسمع منه يومًا كلمةَ جزَعٍ أو تسخّط، بل كان يتقلب في عبوديةِ الصبر!

وأذكر له أنه حدّثني -إبان عمَلِه في شركة الكهرباء وكيلًا عنها في استئجار ما يناسب من مواقع لأبراجها وغُرَفها- عن أولئك الذين

يلوّحون بالرشـــوة من أجل أن يوقّع لاســـتئجار موقع لهم تمرّ به أبراج الشركـــة، فيأبى -مع أن بعض هذه الرشـــا يعادل راتبه ســـنوات عدة- ويقول: والله يا عمر، إني أرحمهم! يريدون أن ندخل النار بحفنة دراهم! فانظـــر كيف عصمَه اللهُ من قبولها، وكيف انتقل مِن رفضها إلى الشـــفقةِ على هؤلاء؟!

وأمـــرٌ آخر، وهو أنني كنتُ -بعد اكتشـــاف المرض- أوصيه كغيري بالصدقة، وأثرها في تفريج الكربة، فيسكت، ثم لما أعدتُ الاقتراح عليه بإطعام هؤلاء العمّال الذين يكنســـون الشوارع، قال: الحمد لله؛ فأنا منذ سنتين أو قال: سنوات، أقوم بإطعامهم بصورة يومية بحسب المتيسر!

وأحســـبُ أن لديه من خبايا الصالحات ما كتَمَه عن الناس، ولعلها أحدُ أسباب ذلك الجمع الكبير الذي شـــوهد في جنازته، وأحسب هذا أيضًا من شواهد محبّة الناسِ له.

أسأل الله أن يجعل ما أصابه رفعةً لدرجاته وكفارةً له، وأن يثيبه ثوابَ الصابرين الذين يوفَّون أجرَهم بغير حساب، وأن يخلُفَه في أهله وولده، ســـلامٌ عليك أبا عبدالله، يوم مِـــتّ ويوم تُبعَث حيًّـــا، وفي الجنة ملتقانا بإذن الله.

الموقف الخبّابي

١٨/ ٧/ ١٤٣٧هـ

في يوم من أيـام مكة المكرمة الشـهيرة بحرارة شمسـها، والملتهبة بسياطها التي أدمت ظهور المؤمنين المستضعفين، في أيام مشحونة بالأذى المتتابـع على أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء خباب بن الأرتّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو من قدماء الصحابة إسـلامًا، ومن أشـدّهم تعرّضًا للأذى- إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقي من المشركين شدّة، فقال: يا رسول الله، ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمرّ وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشـارُ على مفرق رأسـه، فيُشـق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسـير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله، والذئبَ على غنمه**»[1].

هذا الموقف (الخبّابي)، وهذه النفس المشحونةُ بأنواعٍ من الألم النفسي بل والجسدي، تتكرر صورتها في واقعنا وبألوانٍ مختلفة، ومشاهد متنوعة، تلتقي عند همٍّ رسـالي، ومقصدٍ إيماني شريـف، وحدَبٍ على هذا الدين،

(١) رواه البخاري (رقم٣٨٥٢).

والضيقِ ذرعًا باشتداد الغربة، واستحكامها في بعض الأزمنة والأماكن، فيأتي الجوابُ النبوي المليءُ بالسكينة واليقين، والمحشون بتفاؤل يبدّد غيومَ اليأس التي علت قامةَ خباب الكبيرة، لا ليخبره بأن أمَدَ هذا الأذى سيتوقف، بل ليُقسم له -وهو الصادق البارُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأن هذا الدين الذي يحاصَر في شعاب مكّة المكرمة، ويتسلط صناديدُ الكفر على ضَعَفة أهله؛ سينتشر انتشارًا يبلغ من أثره أن يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت -وهي مناطق يتيه فيها الذكي، ويخاف فيها القوي-، لا يخشى شيئًا سوى الله الذي اختار هذا الدين الخاتم، والذئبَ على غنمه!

إنه التفاؤل يا أحبّة، في شدة اليأس، وصعوبة الأحوال المحيطة بالإنسان، إنها كلمات تقول لكل محزون وبائس: الدين دينُ الله، والله حافظُه، بل ومتكفلٌ بنشره؛ فابحث لك عن موطئ قدَمٍ في نصرته: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

إن هذا الموقف النبوي، ليؤكد حاجةَ الأمة إلى ذلك العالم الذي لا تهزّه رياحُ الأحداث، ولا تفُتّ في عضده المتغيرات التي ظاهرها الشر، بل لا يزداد بها إلا بصيرةً ويقينًا بصدق موعود الله، كما قال سلف هذه الأمة، في غزوةٍ من أصعب الغزوات النبوية: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

ما أحوج الأمّة إلى أولئك العلماء الربانيين، الذين إذا جاءَهم الناسُ وجدوا فيهم من اليقين والثقة ما يبدّد قلقَهم، وأذكر ههنا شاهدَين من شواهد التاريخ، أحدهما كنتُ شاهدًا عليه:

الأول: ما ذكره ابنُ القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «وعَلِمَ الله، ما رأيتُ أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرّهم نفسًا، تلوح نضرةُ النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوفُ، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض؛ أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامَه، فيذهب ذلك كلُّه، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة»[1]، ومن قرأ ما سطّره ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن غزو التتار، وما نقله تلميذُه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أدرك شيئًا من عظمة هذه النفس في زمن الشدائد، وما كانت عليه من التفاؤل واليقين بنصر الله، في لحظات عصيبة، تُشبه ما مرّ بالمسلمين يوم الأحزاب.

الثاني: ما كان عليه سماحة شيخنا الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأشهد بالله أنه كان من أعظم الناس صبرًا، وأكثرهم فألًا ويقينًا، وكان كالبحر الخضم، لا تكدّره الخطوب، ولا تُثني عزمَه الحوادثُ على شدتها، ولا يزداد بذلك إلا بصيرة، وكان دائمَ الحث على العمل لهذا الدين، والدعوة إلى بذل كل جهد ممكن في نصرته، يترجم ذلك قولًا وعملًا.

إن نبرة اليأس إذا كانت غير مستغربة من عامة المسلمين؛ فلا يصحّ أبدًا أن يسري هذا الداء إلى أهل العلم على اختلاف مستوياتهم، مهما كانت الظروف، تأمل قوله تعالى في وصية يعقوب لبنيه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] «فالمؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله» كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويضيف معلقًا على سورة يوسف: «وهذه السورة تضمنت ذكر

(١) الوابل الصيب (ص٤٨).

المستيئسين، وأن الفرح جاءهم بعد ذلك؛ لئلا ييأس المؤمن؛ ولهذا فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١]...، ومن المعلوم أن الله إذا وعد الرسلَ والمؤمنين بنصرٍ مطلق- كما هو غالب إخباراته- لم يقيِّد زمانَه ولا مكانَه ولا سنتَه ولا صفتَه»[1]. والخوف -والله- هو من تقصيرنا في نصر دينه، وإلا فالأمر كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والحق منصورٌ وممتحن فلا
تعجب فهذي سنة الرحمن

وبذاك يظهر حزبُه من حزبِه
ولأجل ذاك الناسُ طائفتان

اللهم، املأ قلوبنا ثقة بك، وتوكلًا عليك، واجعلنا من أنصار دينك، ومن حملة شريعتك.

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٨٤).

بل هو خطأ

٢٥/ ٧/ ١٤٣٧هـ

تحفلُ الكثيرُ من المجالس بالحديث عن مختلف القضايا، سواء ما اتصل منها بالقضايا الشرعية أم الاجتماعية أم غيرها، وفي بعض الأحيان يسيطر عليها حديثٌ في قضيةٍ -قد تكون حديث الشارع- وكلٌّ يُدلي برأيه في هذه القضايا، والأمرُ إلى هذا الحدّ مفهوم، ما لم يكن حديثًا بغير علم في قضايا الشريعة، فالنصوص الشرعية واضحة في التحذير من الخوض فيها بغير علم.

تبدأ المشكلةُ حين يتداول الحضورُ قضيةً ذات أبعادٍ كثيرةٍ، وربما كانت معقّدة، فيطرحُ بعضُهم وِجهةَ نظَره في تلك القضية، فإذا ما خولف في رأيه ردّ مباشرةً بتخطئةِ الرأي الآخر، دون إعطائه فرصةً للتوضيح، أو إعطاء نسبة احتمال صوابٍ في رأيه، والمحصّلة النهائية لكلامه هي أن رأيي صوابٌ لا يحتمل الخطأ!

هذا المشهد يتكرر في كثير من المجالس مع عددٍ من القضايا، وهذا لا يعود لأن المسألة فيها نصٌّ تلقّاه ذلك (الصوابيّ) عن طريق الوحي! كلا، وإنما يعود لطبيعة تفكيره وأسلوبه في الحوار، الذي يكشف عن جهلٍ

أو كِبْرٍ، ينشأُ عنهما ألوانٌ من الخطأ بل والصَّلَف في طرح الرأي، ومناقشة آراء الآخرين، وذاك المسكينُ يظنُّ أنه مَلَك ناصيةَ الحق، أو أن الناس يسكتون عن إتمام الحوار معه لأنه أفحم غيرَه بالحجج الباهرة، والبراهين الساطعة، وهو لا يدري أنه لم يناقشه أحدٌ لجهله وظلمه لا غير، ورحم الله الإمام الشافعي يوم قال: «رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأٌ يحتمل الصواب»[1].

هذا الأسلوب في القطع لا يقتصر على القضايا التي لا نصّ فيها، بل يمتد إلى مسائل شتى، خاصةً المسائل الشرعية، التي تأخذ نصيبَ الأسد من الحديث في كثيرٍ من مجالسنا، والعجيب أن ترى تلك الحماسة للقطعية بصواب الرأي في مسائل فيها الأدلة متكافئة، ولو تحدث عنها عالم لقدّم، وأخّر في الترجيح، بل قد يكون جمهور العلماء على خلاف تلك المسألة التي تحمّس لها المتحدِّث!

أذكر أن أحدهم اتصل بي يريدني أن أتصل على أحد المشايخ الذين أفتوا في مسألةٍ على خلاف ما يَعهد هو منها من الحكم الشرعي، يريدني أن أنصحه عن هذا القول الذي قال به! معلّلًا أنه خلاف ما نعرفه، وما عليه الفتوى التي كنا نسمعها من مشايخنا الكبار... إلخ، فقلتُ له: إن القول الذي أفتى به هذا الشيخ هو قول جماهير العلماء، وهو المشهور من مذهب الحنابلة، فدهش دهشةً عظيمةً! ثم سكت.

هذا الاتصال يكشف عن سببٍ من أسباب اعتقاد الصوابية المطلقة في آرائنا الشرعية أو غيرها، وهو جهلُ المتحدث بالخلاف، وبأطراف

(١) انظر: التعريفات للجرجاني (ص١٣٥).

المسألة التي يخوض فيها، وصدق أبو حنيفة يوم قال: «أعلمُ الناسِ أعلمُهم باختلاف الناس»[1]، ومفهومُ كلمة هذا الإمام ظاهر، وبيّن.

وقد قلتُ في نفسي -بعد اتصال ذاك الأخ-: هذا شخصٌ استطاع أن يستوضح ممن يثق به، فكم هو عدد الأشخاص الذين مضوا لا يلْوُون على شيء؛ ليخطّئوا ذلك الشيخ الذي استغرب صاحبي فتواه؟ وكم نِيْلَ منه بسبب جهل المتكلم عليه بالخلاف في تلك المسألة؟!

ومن شؤم هذه الطريقة في التعامل مع المسائل: شحنُ النفوس على المخالِف، بحجّة أنه خالف الحق! وما هو إلا الحق الذي في رأس ذلك المتحدِّث فحسب، وقد يكون الحق في خلافه!

ومهما يكن مِن أمرٍ، فإن من العقل والحكمة أن يكون الإنسانُ واسع الأفق، معتدلًا في طرحه، واضعًا مساحةً من الصواب للطرف المقابل، ما لم يكن في المسألة إجماع، أو نصٌّ صريحٌ لا يقبل التأويل، مع الاحتفاظ بأكبر قدر من العبارات الليّنة في التعبير عن خطأِ مَن ثبتت مخالفته، خاصةً وقد عُلم صدقُه واجتهادُه في تحرّي الحق، وهذا كلّه في ذلك النوع من المسائل التي تتجاذبها الأدلّة، أما ما سوى ذلك فدائرةُ العذر فيها ينبغي أن تكون أوسع وأكثر.

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٨).

النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والعمر الإنتاجي

٤/ ٨/ ١٤٣٧هـ

شخصان كلاهما عاش أربعين عامًا في هذه الحياة: الأول كان الهدف عنده واضحًا من البدايات، وأدرك أنه لن يعيش مرتين، فاستثمر وقته في أعمال تلتقي مع أهدافه، وتتواءم مع ميوله وميدانه الذي يحسن الجري فيه، وأما الآخر -الذي عاش العمر نفسه- فهو شخص عاش عمره الافتراضي، فولد عاديًّا، وعاش عاديًّا، ومات عاديًّا! مع رجاء الخير لكل من مات على التوحيد، مهما بلغ تقصيره، إن سلم من حقوق العباد.

هذا المعنى الجليل تناوله علماء الشريعة عند بحثهم في معنى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه**»[1]، حيث تحدثوا عن صفة النسأ في الأثر -أي تأخير الأجل-، ومن التوجيهات المشهورة الراجحة في معناه، ما قاله النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على مسلم: «أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك»[2]،

(١) رواه البخاري (رقم٥٩٨٦)، ومسلم (رقم٢٥٥٧).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١١٤).

وكأن النـــووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبـــين لنا في اختيـــاره هذا أهم المعـــالم التي قادته للنجاح في حياتـــه، فالنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نموذج حاضر، وشـــخصية ممتازة لتكون شاهدًا على تحقيق أفضل الدرجات في العمر الإنتاجي الذي دلّت عليه هذه البشـــارة النبوية، فإنه لم يعش سوى خمسةٍ وأربعين عامًا، وملأ الدنيا علمًا، وصارت مصنفاته محلّ عنايـــة العلماء من جميع المذاهب، فما السبب يا ترى؟ إن لذلك أسبابًا كثيرة، لعل من أبرزها: الصدق مع الله، وإخلاص العمل، ثم غيرته على وقته، التي ظهرت آثارها بشكل جليّ في سنيّ التحصيل -اثنا عشر درسًـــا في اليوم- ثم الانكباب على التصنيف بعد اكتمال الآلة.

كم نحن في حاجة لدراسة أمثال هذه الشخصيات المتميزة، المؤثرة في عطائها! وهي في نظري من أهم المحفّزات التي تدفع لاغتنام ســـاعات العمر، والبحث عن موطئ قدمٍ في هذه الأمّة، التي باتت اليوم أحوج ما تكون لكل طاقة شابة من طاقات أبنائها.

نسمع في مقتبل الإجازات أحاديث عن اغتنام الوقت، وتتنوع أمامنا المقترحات، والوســـائلُ التـــي يُعْمَرُ بها الوقت، ولكـــنْ قليلٌ من يكون جادًّا في ذلك، وتمضي عليه الأيام والأســـابيع والأشهر دون إنتاج يُذْكَر، فما الســـبب؟ لعل من أهم الأســـباب: عدمُ وضوح الهدف، وقلةُ الغيرة على الوقت -الذي هو أغلى من المال عنـــد العقلاء- والتخبطُ في تحديد الأولويات، والانهماك في وســـائل التقنية -ومنها وســـائل التواصل-، وغيرها من الأســـباب التي تحـــدث عنها الكثيرون ممـــن كتب في إدارة الوقت.

والمقامُ ليس مقامَ تفصيل لهذه المشكلة، ولستُ بصدد طرح مشروعات عملية لذلك، فقد كَتبَ في هذين الموضوعين كثيرون -كما أسلفت-، وإنما هي لفتةٌ من محب لأمته، ولأفرادها -خاصة الشباب- أن يعيد كل واحد منهم النظر في هذا الموضوع المفصلي في حياته... لينظر إلى الوراء، وليتأمل: متى ولد؟ وماذا أنجز؟

ومما يحسن التنبيه عليه: أننا حين نتحدث عن هذا الموضوع، فإننا لا نعني بالضرورة الانشغال بالعلم الشرعي فحسب -ولا شك أنه أشرف ما اشتغل به الإنسان- كلا، إذْ لا يعقل أن تُوجّه الأمة كلها لذلك، فهذا مصادم للسنن، والأمة محتاجة إلى طاقات كثيرة في كل ميدان نافع من ميادين نفع الخلقِ في دينهم ودنياهم، وإنما المقصود: التنبيه على تلك القاعدة النبوية العظيمة التي قالها من أوتي جوامع الكلم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**»[1]، وقول الله أبلغ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧].

والمهم أن يعزم الإنسان على نفع أمته فيما يُحْسنه، ثم ينطلق مستعينًا بالله، مستنيرًا بآراء أهل الخبرة والمشورة؛ ليضع له بصمةً في تاريخ أمته، ولْيتذكر أن هذه الأمة ولود، فالأمة التي أنجبت الأئمة الأربعة، وأكابر المجددين في القرون الماضية، كالنووي، وابن تيمية، وابن حجر، وابن عبدالوهاب، والشوكاني رَحِمَهُمُ اللَّهُ، هي التي أنجبت في هذا العصر المعلّمي اليماني، وأحمد شاكر، وابن باز، والألباني، وابن عثيمين، وعبدالرحمن

(١) رواه البخاري (رقم٦٦٠٥)، ومسلم (رقم ٢٦٤٨).

السميط، وغيرهم كثير رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أجمعين ممن سطّروا أسماءهم بأحرف من نور، وصار لهم أثرٌ مبارك في هذه الأمة.

إنني أنا وأنت وأولئك نشترك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، فلنحاذر أن نعيش على هامش الحياة، ونموت دون أن يكون لنا أثر.

كيف تخسر الأصدقاء؟

٩/٨/١٤٣٧هـ

الحديثُ عن الصداقة والأصدقاء حديثٌ يلامس النفوس، فهو حديثٌ عن شيءٍ يلاقي الفطرة السويّة، والطبيعة البشرية، وصَفها الخليلُ بن أحمد بكلمة معبّرة حين قال: «الرجل بلا صديقٍ كاليمين بلا شمال».

ويزدان الحديثُ عن هذه الصداقة بِذكر آثارها، وما ينتج عنها من مواقف الشهامة والمروءة والوفاء، ولا ينبغي الالتفاتُ إلى أدبيات بعض الشعراء والمصنّفين في الأدب، الذين تحدّثوا عن الصداقة بلغةٍ تشاؤمية، والتاريخُ والواقعُ يردّان ذلك.

ومن الإنصاف أن نقول: إن من الناس مَنْ لا يُقدّر هذه العلاقة قدْرها، فيحمّلها أكثرَ مما تحتمل، ويكدّرها ببعض الأمور التي لا تنبغي؛ فيخسر صديقَه لأدنى سبب، وقد سُئل بعضُ الحكماء: استفساد الصديق أهون من استصلاح العدو؟ قال: نعم، كما أن تخريقَ الثوب أهونُ من نسْجه.

وسأشير في هذه المقالة إلى بعض الأسباب التي يخسر بها بعضُ الناس أصدقاءَهم، نبّه العقلاءُ عليها قديمًا، وتتراءى للإنسان مع الأيام وتعدُّدِ

المواقف، أذكرها لعلها تكون معينةً على تلافي ذلك مستقبلًا، والحفاظ على هذه الآصرة، فمن ذلك:

١. **الغفلة عن الفروق الفردية بين الناس**: فمن الناس من يكون له أكثر من صديق، وفي بعضهم من الوفاء ومكارم الأخلاق والمروءة ما ليس في الآخَر، فيريد حَمْلَ بقيةِ الأصدقاء على خُلُق هذا الصديق المتميز، وهذا خطأ، والعاقلُ مَن راعى هذا الأمر، فأصابع اليد ليست واحدة، والأب الذي رُزق بعدّة أولادٍ من زوجة واحدة، يَرى في كل ولدٍ من الطباع ما ليس في الآخر، فكيف بمن خرجوا من أصلابٍ وأرحامٍ شتى؟!

وإذا كان الأمر كذلك، فأشدّ مما سبق أن يحملَ الإنسانُ الناسَ على طبْعه، ويريدُهم أن يوافقوا رأيَه، وإلا رماهم بقلّة التقدير وعدم الاحترام، وغلطُ هذا المسلك أظهر مِن أن يُطال الوقوفُ عنده.

٢. **ومن ذلك: كثرةُ العتاب** على أتفه الأسباب، أو تضخيمُ بعض الأخطاء الصغيرة، وهذا شيءٌ تكرهه النفسُ، وتأنف منه، وينفِرُ منه الصديق، والموفّق مَن فعل ما قاله الشاعر:

وكنتُ إذا الصديقُ نبا بأمري

وأشرقَني على حنَقٍ بريقي

غفرتُ ذنوبَه وكظمتُ غيظي

مخافةَ أن أعيشَ بلا صديقِ

٣. والعاقل من غضَّ الطرفَ عن الزلّة، واحتمَلَ الخطأ، خاصةً إذا لم يتكرر، وإذا تكرر التمسَ الأسلوبَ الأمثلَ في التنبيه عليه، فإن مما يكدّر الصفوَ: الأسلوبُ الذي يعالج به الخطأ.

٤. وحتى لا تخسر أصدقاءَك: فعليك إذا تبيّن لك الخطأ أن تعترف به، ولا تأنَف من ذلك، أو تظنّ أن الاعترافَ مما يقدح في شخصيتك، فالرجوع إلى الحق فضيلة، وهو خيرٌ من التمادي في الباطل واللجج فيه.

٥. **عدم التماس الأعذار لهم** عند وجود سببٍ للعتاب، فللناس أعذارٌ قد لا يستطيعون إبداءها في كلّ حين ـ كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ والأمثلةُ في هذا أكثر من أن تُحصَر.

٦. **ومن أسباب خسارتهم: عدمُ الاهتمامِ بمشاعرهم** والاكتراثِ بها، فليس من الصداقة في شيءٍ أن تمرّ على صديقك أيامُ المصائب والأفراح وأنت بمنأى عنه، وكأن الأمرَ لا يعنيك! فالصديقُ إذا لم يكن له بصمةٌ على مشاعر صديقه في أوقاتٍ كهذه فمتى؟

٧. **ومنها: قبول كلام الناس فيهم عندك**، يُذكرُ أن رجلًا جاء إلى مطيع بن إياس، فقال: قد جئتُك خاطبًا، قال: لمن؟ قال: لمودتك، قال: قد أنكحتُكَها، وجعلت الصَّدَاقَ ألا تَقبل فيّ مقالةَ قائل.

٨. **تصديق بعض الأمثال والحِكَم الواردة على ألسنة بعض الشعراء**، وكأنها نصٌّ منزّل من القرآن! كما يردد أحدُهم:

إذا صافَى صديقُك مَنْ تُعادي فقد عاداكَ وانقطعَ الكلامُ!

علّق بعضُ الحكماء على هذا المعنى قائلًا: «هذا هو الإسراف والتجاوز، والعِداء الذي يخالف الدينَ والعقل، لعل صديقَك إذا رأيتَه مع عدوك يثنيه إليك، ويعطفه عليك، ويبعثه على تدارك فائتةٍ منك، ولو لم يكن هذا كلّه لكان التأني مقدَّمًا على العجل، وحسنُ الظن أولى به من سوء الظن»[1].

(١) الصداقة والصديق لأبي حيان (ص٤٦).

وبالجملة، فالعاقل مَنْ عضّ على أصدقائه بالنواجذ، خصوصًا من تقلّب الدهرُ به معهم على السراء والضراء، فوجدَهم زينةً في الرخاء، وعُدّة في البلاء، وأصهارَ الروح، فإن الصديق الصالح مِن مغانم الحياة الدنيا والآخرة، ألم تسمع قولَ أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]؟ ونفعُه ممتد في الدارين: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، فحافظ على الصديق ولو في الحريق - كما قال بعضهم- فشراءُ الصديقِ صعبٌ عسيرٌ، وبَيعه سهل ممكن.

الفتوى بين المفتي وناقلها

ليلة النصف من شعبان نموذجًا

١٦/ ٨/ ١٤٣٧هـ

في كل مناسبة شرعية تطفو على السطح قضيةٌ أراها جديرةً بالوقوف عندهـا، وهي أنه حينما يقـترب زمانُ عبادةٍ من العبـادات التي يقع في أصلها أو في تفاصيلها خلافٌ بين أهـل العلم؛ فإنك تجد بعضَ المحبين للخير يُنَظِّمُ ما يشـبه الحمَلات للحث على هذه العبادة إن كان من أتباع ذلك العالم الذي يرى مشروعيةَ ذلك الفعل، أو للتحذير منها إن كان من أتباع مَنْ لا يرى جوازَها.

المسـألةُ لا تقف عند تنظيم الحمْلة -إن صـحّ التعبير- بل تنتقل إلى حماسٍ غير عادي من قِبَل هؤلاء المقلِّدين المتحمِّسـين لرأي شيخهم أو ذلك العالم الذي يتبعون قولَه، يتطور هذا الحماسُ للدفاع عن القول دفاعَ المفتي بـه، وقد ينتقل إلى إلزام الطرفِ المخالفِ بـما لا يقول به مَن أفتى بتلك الفتوى نفسـها؛ من التبديع أو التضليل والتجهيل! وكلّ هذا خطأ بلا ريب، لا يُقرّه من شمَّ رائحة العلم.

ومَنشأ هذا الغلط هو: أن أكثر هؤلاء المقلّدين لشيوخهم لا يعلمون أن الناقلَ المجرَّد للفتوى ليس مفتيًا، بل هو حاكٍ لها[1]، وقد أشار ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بعض أسباب هذا الحماس من قِبَل هؤلاء المقلّدين، وهو **أن الحامل لأحد هؤلاء هو**: التربي على قولٍ تعوّده، ومع هذا فهو لا يُحسن النظرَ في الأدلة الشرعية، ولا يعرف مآخذَ أهل العلم في الاستدلال، ومَنْ كان كذلك «لم يُحسِن أن يتكلم في العلم بكلام العلماء»[2].

ولعليّ أمثّل على ذلك بمسألةٍ قريبةِ السِّجال، الذي ملأ مواقع التواصل صداها، وهي مسألة: حكم إحياء ليلة النصف من شعبان؟ وهل صح في فضلها شيء؟

والعلماء -كما هو معلوم- مختلفون فيها من عهد التابعين، وجماهيرُهم على أنه لا يصح حديثٌ في فضلها، ولا يُشرع -بناءً على ذلك- تخصيصُها بعبادة، وذهب بعضُ التابعين إلى جواز تخصيصِها بشيءٍ من ذلك؛ اعتمادًا على بعض ما ورد في الباب، صحَّح بعضَها عددٌ من المتأخرين.

ومَنْ قرأَ ما قرّره أهلُ العلم المحقِّقون عند عرضِ هذه المسألة يُدرِك الفرقَ الكبيرَ بين عَرْضِهم وعَرض المقلّدين لهم، الذين -أعني المقلدين- لا يحترزون مِن مآلاتِ حماسهم وانتصارهم لقول متبوعهم، ومن ذلك: أنني قرأتُ -في موقع التواصل تويتر- لأحد المنتصرين للقول بصحة بعض ما ورد فيها، وجواز تخصيصها ببعض العبادة؛ قرأتُ له ردًّا على أحد أهل العلم الذين قرّروا -بالدليل- عدمَ صحة هذه الأحاديث، فقال -بلغة تقطر جهلًا-: ومَنْ أنت حتى تخالِف فلانًا -يعني الشيخ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٠٣).
(٢) راجع: مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٠٢).

الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ-؟! ونسي هذا المقلِّد أن هذا السؤالَ نفسه يمكن لمقلدٍ في الجهة المقابلة أن يطرحه بصورةٍ مقلوبة: ولماذا الشيخُ خالفَ كبار المحدِّثين المتقدِّمين في إعلال هذه الأحاديث؟! ولو سكتَ هذا النوعُ من الناس لما تحوّلت مواقعُ التواصل إلى سجالاتٍ يقودها مَنْ لم يعرف أصولَ الاستدلالِ، ولا طرائقَ العلماءِ في النظر في الأحاديث وفِقهها.

ويمتد السجالُ -في بعض الأحيان- ليأخذ منحنى خطيرًا، وهو تضليل هؤلاء المقلِّدين لمن أخذ بقول المصحِّحين لهذه الأحاديث، مع أن الذي يضعّفها لا يقول بهذا، بل يحكم على الفعل بأنه غير مشروع أو بدعة، دون تبديعٍ لمن قال به اجتهادًا أو تقليدًا لعالم متبوع!

وليت المقلّدَ من الطرفين يتأمل قولَ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمقلّدُ لا ينكِر القولَ الذي يخالف متبوعَه إنكارَ مَنْ يقول هو باطل، فإنه لا يعلم أنه باطل؛ فضلًا عن أن يحرّم القول به، ويوجب القولَ بقول سلفه»[1].

فهل يعي إخوانُنا الفضلاء -الحريصون على الخير- الفرقَ بين المفتي وبين ناقل الفتوى؟

وهل نتقدم خطوةً إلى الأمام في تخفيف هذه المعارك التي تنشأ بين المقلِّدين، ويحمّلونها المفتين الذين هم منها براء؟

وهل نفقه أن من أعظم مقاصد الشريعة: تأليف القلوب، والنأي بها عن أي سبب لفرقتها؟

أرجو ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/ ١٤٣).

مجالس مع أبي خيثمة

٢٣/ ٨/ ١٤٣٧هـ

حين يُقَــدَّر لك أن تشــارك في دورة علمية، يجتمع فيهــا مئاتٌ من طلاب التخصصات الشرعية، بل من خريجي تلك الأقســام، ومن أكثر من ثلاثين جنســية؛ فهذه غنيمة بــاردة، وإذا كان الكتابُ الذي جرت فيه المدارســةُ يدور حول العلم، وآدابِه، وسبلِ تحصيله، ومناهجِ العلماء فيــه: حفظًا وكتابةً وتعليمًا ورحلةً، وعن شيء من صفة مجالس العلماء في التحديث والفتيا؛ فهذا مما يزيد في وقْعِ الغنيمة.

وهكذا كان الحال في الدورة العلمية التي يسّرها الله تعالى أمس الأحد -الثالث والعشرين من شهر شــعبان من هذا العام[1]- في مدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين تمّ التعليق على كتاب (العلم) لأبي خيثمة سليمان ابن حرب النسائي (٢٣٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في ستة مجالس ولله الحمد.

لقد بدا لي وأنا أعلّق على هذا الكتاب، وأرى في وجوه الحاضرين التي تنوّعت من أقطار الدنيا؛ أن أشــير إلى أنه من أكبر المشكلات التي تواجه

(١) ١٤٣٧هـ.

طلابَ العلم اليوم ليس نقصَ المعلومات، أو القدرةَ على الوصول إليها، وإنما هي مشكلة غياب أدبِ العلم، ومعرفةِ منهج السلف في التعامل مع المخالف، ومنزلةِ المسائل التي يسوغ فيها الإنكار والتي لا يسوغ، ثم كيفية الإنكار، ولستُ في حاجةٍ إلى ذكر الأدلة على أهمية ذلك؛ فالواقع العلمي أكبر شاهد على هذا، ومواقع التواصل الاجتماعي كشفت عن أن المشكلة أعظم وأكبر!

والذي أعتقده أن من أعظم أسباب الخلل القائمة أمرين:

الأول: أن كثيرًا من الطلاب يبدأ بتعلّم العلم قبل تعلم أدَبِه، وقبل أن يُبنى في جانب التعبّد، بل الواقع يقول: إن الطالب -في الغالب- يُبنى علميًّا قبل أن يبنى إيمانيًّا وتربويًّا، فيقع الخلل، وينشأ الطالبُ -بسبب طبيعة المواد التي تلقاها، وما فيها من كثرة سياق الأقوال؛ سواء في المسائل العقدية أم الفقهية- يبقى مستعدًّا للنقاش العلمي، وربما يتطور إلى (عراك) عند أدنى بحث!

الثاني: قلّة هذا النوع من الدروس في الدورات العلمية، التي تُعنى بالتربية العلمية لطالب العلم، ومعرفة طرائق السلف في العلم، والعمل، وأدب الطلب... إلخ.

وبعض المنظّمين لهذه الدورات يعتذرون بضيق الوقت عن طرح أمثال هذه الدروس، أو لأنها يمكن للطالب أن يقرأها وحدَه، أو لغير ذلك من الأعذار، التي لا أراها سائغة، بل أعتقد أن أمثال هذه الموضوعات من صلب التأسيس العلمي لطلاب العلم، ومن أعظم العواصم لقواصم الخلاف والفُرقة التي تشاهد بين المنتسبين للعلم، مع الأسف الشديد.

ومما أعجبني في مذهب أهل الكوفة في تحديدهم للسنّ الأفضل للطلب والرحلة في سماع الحديث أنهم: «لم يكن الواحد منهم يسمع الحديثَ إلا بعد استكماله عشرين سنة، ويشتغل قبل ذلك بحفظ القرآن وبالتعبّد»[1]، فانظر كيف نصّوا على مسألةِ التعبد؛ لما لها من أثر في تهذيب أخلاق الطالب وسلوكه.

لقد كان من أعظم الدروس التي أشار إليها الكتاب (كتاب العلم) لأبي خيثمة: أن السلفية ليست منهجًا لواحدٍ من العلماء بعينه، بل هي منهجٌ يتشكل من مجموعِ أقوالهم وأفعالهم، وهذا فيه من الرحمة واليُسر والتوسعة على الناس ما لا يخفى، لا في مسائل العلم، ولا في الآداب والأخلاق والسلوك.

وإن من الظلم والإجحاف: الانتسابُ إلى السلف في بابٍ وترك أبواب عدة! فهذا انتساب جزئي، يجني على السلفية أكثرَ مما ينفعها، وإذا كنا نعتبر ونعتقد أن طريق السلف بمجموع منهجه يمثّل الإسلام النقيّ الصافي؛ فعلينا أن نأخذها جميعًا، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص٥٤)، وليس القصد هنا ترجيح وقتِ السن الذي يبدأ فيه الطالب، بل القصد هو: اللفتة إلى عنايتهم بالتعبّد.

استراحة قلم

٢/ ١/ ١٤٣٨هـ

منذ افتتاح الموقع الشخصي أوائل عام ١٤٣٣هـ -وبناء على مشورة بعض الأفاضل- وأنا ملتزم بمقال أسبوعيٍّ أُطِلُّ فيه على الزوّار الكرام للموقع، وكانت أكثر موضوعات هذه المقالات تدور على ثلاثة محاور: العلم، والدعوة، والتربية[1].

هذا الالتزام الأسبوعي له ثمن بلا شك، فالزائرُ مِن حقّه أن يجد شيئًا مفيدًا يُضيفه إلى معرفته، ويستحق الوقتَ الذي منحه لك ليقرأ ما سطرتَه، فليس تسويدُ الأوراق أو صفّ الحروف غايةً بذاتها، هذا الثمن يتمثل في كثرة القراءة وتنوعِها بما يخدم الهدفَ من المقال، وكذلك حسن المتابعة لما يدور في الساحة العلمية والدعوية؛ ثم تسخير القلم للحديث في هذه الحقول؛ إما في مشروعات مقترحة، أو في نقدِ بعض المظاهر السلبية، أو في الثناء على بعض الأفكار الإيجابية، وهكذا.

(١) وقد يسر الله طبع هذه المقالات في ثلاث مجموعات تحمل اسم الزاوية الأسبوعية التي اخترتها لهذه المادة (مرافئ).

ومن أهمّ ما شجّعني على الاستمرار هو ما كنت أجِده من تفاعلٍ حسَن مع بعض المقالات -سواء كان التفاعل فرديًّا أم مؤسسيًّا- مع يقيني أن عددًا من المقالات لم يكن بالقدْر المرضيّ لي شخصيًّا، لكن هي دلالة على ضعفنا نحن البشر، وحاجتنا إلى المراجعة الدائمة والناقدة.

ومن المفارقات أن تكتب مقالًا ينتشر، وتصلك عنه ثناءات من هنا وهناك لم تكن تخطر ببالك، والعكس صحيح؛ فكم من مقال تظنّ أنه سيحظى بشيءٍ من التفاعل، فلا يقع هذا! ولله في خلقه أسرارٌ وشؤونٌ.

وحين توقفتُ عن الكتابة في نهاية العام الدراسي الماضي (١٤٣٦/ ١٤٣٧هـ)، رأيتُ أن هذا التوقف لا بد أن يصحبه تزوّدٌ من أهم مغذّيات هذه المقالات -وهي القراءة-، لعل الكتابة في هذه الزاوية تكون أكثر فائدة وعمقًا، ولهذا آثرتُ أن تكون الكتابة نصف شهرية، مع بداية الدراسة والعام الهجري الجديد.

هذا التوقف والمراجعة في نظري شيءٌ ضروريٌّ ولا بد منه لكل كاتب، أو مقدِّمٍ لبرنامج إعلامي، فالإنسان في كل يوم يتعلم، وفي كل يوم يكتشف مزيدًا من جوانبِ نقصِه وأخطائه، وإن مِن نعم الله الوافرة عليّ أن وهبني أصدقاءَ نَبَلًا[1]، يقترحون ويسدّدون ويصوِّبون قبل نشر المقال وبعد نشره، فأنا لهم مَدين وممتنّ وداعٍ.

---

(١) النُّبْل: الذَّكاءُ والنَّجابة، وكلمة نبيل تُجمع على: نُبَلاء، ونَبَل، ونَبَلة. انظر: العين (٨/ ٣٢٨)، المخصص (١/ ٢٥٦)، ولسان العرب (١١/ ٦٤٠)، والمصباح المنير (٢/ ٥٩١)، وأساس البلاغة (٢/ ٢٤٤)، وشمس العلوم (٩/ ٦٤٥٧).

لقد كنتُ من البداية أُدرك أن الكتابةَ الأسبوعية ليست بالأمر السهل، خاصة على حديثِ التجربة بها من أمثالي، وكنتُ أشـــعر أن المقال أشبه ما يكون بالمولود، يمرُّ بأطوار عدّة حتى يكون خَلقًا آخر قابلًا للنشر.

لقد كانت كتابةُ بعض المقالات عندي تشـــبه حالةَ المخاض؛ أجد في تحريرها عُسْرًا في صياغة الفكرة، أو في اختيار المدخل المناســـب لها، بينما كان بعضُهـــا يجري على طرف القلم، تتســـابق أفكارها وكلماتها، وأعاني اختصارها.

وحُـــقّ لي بعد هـــذه التجربة المتواضعة -التي امتدت أربع ســـنوات تقريبًا- أن أُبدي دهشـــتي من بعض الكُتّاب الذين يكتبون بشكلٍ يومي في بعض الصحف! كيف وماذا يكتب؟ أم هو يتحدّث، ولا يقول شيئًا؟!

حسرات من نوع آخر

١٥/ ١/ ١٤٣٨هـ

في النصف الأول من عام ١٤٢٠هـ كنت في زيارة للأردن، ولعاصمتها عمّان تحديدًا، فعزمت على رؤية الشيخ العلامة، محدِّث العصر ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبعد جهدٍ جهيد وصلتُ إلى بيته في (ماركا الجنوبية)، وكم كانت فرحتي حين رأيت اسَم الشيخ على البيت بنفس الخط الفارسي التعليق (محمد ناصر الدين الألباني)!

لكن هذه الفرحة سرعان ما تبددت حين باءت محاولاتي بالفشل مع أهل بيته -وأنا ألتمس الدخول عليه- حيث اعتذروا بمرضه، وعدم إمكانية الدخول عليه، لم يشفع لي إخبارُهم أنني قادم من السعودية، ولا أنني سأسافر قريبًا، ولا شيءٌ من تلك التوسلات التي لم يدفع إليها إلا الحبُّ الكبيرُ لهذا العالم الجليل، وبعدها بأسابيع قليلة، وإذا بخبر وفاته! رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورفع درجاته، وجمعنا به في عليين.

تذكرتُ موقفي هذا، وتذكرتُ معه تلك الحسرات التي زفرتها قلوبُ المحبين، والكلمات الصادقة التي ترجمت مكنونات الأفئدة، لأولئك

الأعلام الذين رحلوا ليلقوا علماءَ أكابر، فسبق القدَر؛ فحال بينهم وبين لقائهم هادمُ اللذات، ومفرّق الجماعات.

ومن أكثر المواقف التي تقطر حُزنًا في التعبير عن هذا المعنى: ما سطّره عبدالله بن حامد الشافعي، في رسالته لابن رُشيّق رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في التعبير عن أسَفه على فوات لقاء شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث يقول: «ولما حججتُ سنة ثمانٍ وعشرين وسبع مئة صمَّمت العزمَ على السفر إلى دمشق لأتوصل إلى ملاقاته، ببذل مهما أَمكن من النفس والمال للتفريج عنه، فوافاني خبرُ وفاته -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- مع الرجوع إلى العراقِ، قبيل وصولي الكوفة! وجدتُ عليه ما لا يجده الأخ على شقيقه -أستغفر الله- بل ولا الوالد الثّاكِل على ولده، وما دخل في قلبي من الحزن لموت أَحدٍ من الولد والأقارب والإخوان كما وجدته عليه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- ولا تخيّلته قط في نفسي، ولا تمثّلتُه في قلبي؛ إلا ويتجدد لي حزنٌ قديمُه كأنه مُحدَث، ووالله ما كتبتُها إلا وأَدمعي تتساقط عند ذكره أَسفًا على فراقه وعدم ملاقاته، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

ومن أشد اللحظات التي يستشعرها الإنسانُ -وهو يتذكر هذا المعنى- تلك الحسرات التي وجدها من رَحَلَ من بلده ميمّمًا وجهه شطر مدينة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاصدًا لقاء صاحبها عليه الصلاة والسلام، والتشرف برؤية ذلك الوجه الأنور، والجبين الأزهر، وإذا به يسمع خبرَ وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزل كالصاعقة عليه! وهذا ما وقع لجماعة من المخضرمين، من أشهرهم: عبدالرحمن بن عسيلة الصنابحي المرادي

(١) انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص٢٤٣).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي بلغه موتُ النبـــي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بالجحفة -وهي تبعد عن المدينة ١٨٣كم- ليصل المدينة بعد خمس ليالٍ من وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! يا الله! أي أشـــواقٍ ولواعـــج كانت تعتلج في قلـــب الصنابحي وهو في الطريق! وأي أقدامٍ تلك التي حملتْه بعد ســـماع الخبر؟! وما مشاعره وهو يمرّ بالقبر الشريف الذي لم يجفّ بعد، ولم تزل آثارُ الأيدي عليه!

هذه الحسرات تتجدّد اليوم في صورٍ شتى، يقرؤها الإنسانُ في نبرات أولئك الذين فرّطوا في الإفادة من علم عالمٍ كان في مدينتهم، أو في جامعتهم.

وتأتي في قالـــب الندم -في آخر العمر- على التفريط في ســـنيّ العمر الأولى وبواكير الشـــباب، حيث لم يغتنمها في شيءٍ ينفع، ويفيد، ويكون رصيدًا تَقرُّ به عينُه في الدنيا قبل الآخرة!

ومـــن أرقى هذه العبـــارات الممتزجة بالعبَرات: تلـــك الأماني التي ســـطّرها جمعٌ من العلماء في أواخر أعمارهم عـــلى التقصير في تدبر كتاب الله والتأمل فيه، والعيش معه وفي ظلاله، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي قال كلمتَه الشهيرة: «قد فتح اللهُ عليَّ في هذا الحصن في هذه المـــرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم؛ بأشـــياء كَانَ كثيرٌ من العلماء يتمنونها، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»[1]!

والســـؤال الأهم بعد هذا: لماذا ينتظر أحدُنا تلـــك اللحظات ليبثّ حسراته، ويعبّر عن ندمه؟ ولماذا لا يجعلُ له مشروعًا كبيرًا يستهلك أكثرَ أوقات العمر، وتندرج تحته مشروعات صغـــيرة تخدم المشروع الكبير؟

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٤/ ٥١٩).

فإن زمانَ النشـــاط والقـــوة البدنية والذهنية لا يتهيـــأ كلَّ وقت، ونعوذ بالله من تقطّع العمر بغير طائـــل، وخَتْمِهِ بحسراتٍ البطّالين! ورحم الله الشافعي إذ يقول:

إذا هبَّـتْ ريـاحُـك فـــاغتنِمْهـا

فعقْبَى كلِّ خـــافقـــةٍ ســـــكونُ

بين الإنسان والشجرة

٣٠/ ١/ ١٤٣٨هـ

لا أدري لم استوقفني منظرُ شـــجرةٍ -مقابِلة لمنزلي قبل أيام- نستظل بظلها، ونتقي به لهب الشمس المحرقة! توقّفتُ عندها قليلًا، وتساءلتُ: كم يوجد في الأرض من شجرة من جنس هذه الشجرة ومن غير جنسها؟ وما الذي جعل لها هذه القيمة عندنا؟ وهل ســتكون لها مكانةٌ لو كانت دون نفعٍ أو أثرٍ؟

هكـــذا هم الناس! نلاقي في حياتنا الكثـــيرَ والكثير، لكن لا يَبقى في الذاكرة منهم، إلا من كان له أثرٌ فينا؛ بعلمٍ أو تجربةٍ أو صحبةٍ حســـنة، أو موقفٍ إنسانيٍّ، أو غير ذلك من صور التفاعل الإيجابي.

يلفتُ نظري كثرةُ القواســـم المشتركة بيننا وبين الشجرة، ومن ذلك: أن لكلٍ واحدٍ منا عُمرًا افتراضيًّا، فهو يُوجد بعد أن كان عدَمًا، ثم يعيش ما كتبَ اللهُ له، ثم يموت!

وأكثر الأشـــجار أثرًا ليســـت تلك التي عُمّرت طويـــلًا، أو أَخذت مساحةً أوسع في الأرض، أو اســـتهلكت ماءً أكثر لسقيها، كلا، بل هي

تلك التي انتفع بها الناسُ أكثر، وهكذا الإنسان، لا تقاس حياتُه بطول سنواته، أو بكثرةِ أمواله، وتعدُّد شهاداته، بل بمساحة تأثيره في هذه الحياة، ولهذا لما أرادَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يوصل جُمْلةً من هذه المعاني؛ طرح سؤالًا على الصحابة، فقال -كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «**إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي**» فوقع الناسُ في شجر البوادي، قال ابنُ عمر: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييتُ، ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «**هي النخلة**»[1].

فتأمل معي -أخي القارئ- روعةَ هذا التعليق من القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ حيث أبدَعَ في بيان وجه الشبَه بين المؤمن والشجرة، فقال:

«ويشبّهها بالمسلم؛ لكثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها ووجوده على الدوام. وأما في رؤوسها: فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعًا، ثم بَعْدُ هو مما يُدّخرُ، فلا ينقطع نفعُها، قال الله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]، ثم في جميعها منافع: مِن استعمال جذوعها في البناء والآلات، وجرائدها حطبًا وعصِيًّا ومخاصِر ومَشاجِب وحُصُرًا، واستعمال ليفها حبالًا وخُطُمًا وحشو الوسائد، والمرافق والبراذع وغير ذلك، واستعمال خوصِها مَكاتل وحبالًا وحُصُرًا.

ثم في جمال بنائها، واعتدال قيامها، واستدارة جذوعها وثمرها، ثم تؤكل رطبة وجمارة، فهي منفعةٌ كلها، وخيرٌ وجَمال»[2].

---

(١) رواه البخاري (رقم٦١)، ومسلم (رقم٢٨١١).
(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٣٤٥).

وهكذا -والله- المؤمن النفّاع، كثيرُ الخير يرى الناسُ مِن أثره في الحياة وبعد الممات.

ألســـنا نرى كم انتفعت الأمةُ بأثر جهاد الصحابـــة العلمي والعملي في بلاغ الرســـالة، ونشر الشريعة؟ وقُلْ مثل هذا في التابعين ومَن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أليســـت كتبُ الأئمة الأعلام بين أيدينا؛ نقرؤها، ونســـتجلي منها ما يُعين على فَهم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وهم في قبورهم منذ مئات السنين!

وفي المقابل، فمِن الأشـــجار ما يكون منظره جميلًا، لكنه يحمل في ثنايا أغصانه الشوكَ المؤذي! وهكذا حالُ بعضِ المنافقين، وأصحابِ المصالح الآنية، قد تجد منهم جمالَ منطقٍ، أو حُسْـــنَ بيانٍ، أو مظهرًا متميزًا، ثم ما أسرع ما يؤذيك بما يَظهر مِن مخابره السيئةِ عند أدنى ملابسةٍ معه! فاحذر، فإنك لا تجني من شوكِ هؤلاء عنبًا.

وبالجملة، فإن الأشجار كما الإنسان، ليست سواء، والعاقلُ مَن تشبّه بالشجرة حســـنة المنظر، جميلة المخبر، عظيمة الأثر، والسعيدُ من تأمَّل، واعتبر، جعلنا الله مباركين أينما كنا.

أم يعقوب ونساء القدوات

١٣/ ٢/ ١٤٣٨هـ

لما حدّث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلّجات للحُسن، المغيّرات خلقَ الله**» فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد، يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته، فقالت: ما حديثٌ بلغني عنك أنك لعنتَ الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحُسن، المغيرات خلقَ الله؟ فقال عبدالله: وما لي لا ألعن من لعن رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأتُ ما بيْن لوْحَي المصحف فما وجدته! فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، فقالت المرأة: فإني أرى شيئًا من هذا على امرأتك الآن، قال: «اذهبي، فانظري»، قال: فدخلتْ على امرأة عبدالله فلم تَرَ شيئًا، فجاءت إليه، فقالت: ما رأيت شيئًا، فقال: «أما لو كان ذلك لم نجامعها»[1].

هذا الموقف من أم يعقوب وعبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يحمل في طياته رسالةً واضحةً، وهي: أن لنساء القُدُوات شأنًا آخر غير النساء

(١) رواه البخاري (رقم٤٤٨٦)، ومسلم (رقم٢١٢٥).

الأُخريـــات. **ومن نافلة القـــول**: إن الأحكام الشرعيـــة لا فرق فيها بين شـــخص وآخر؛ ولكن الشرع الكريم والفطرة يدلان على أن للقدوات شأنًا آخر غير، وآيات ســـورة الأحزاب في حق نساء النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دليلٌ ظاهرٌ.

اليوم يتكرر تســـاؤل أم يعقوب -وهي تشـــاهد نســـاءَ القُدُوات في صالات الأفراح، و(الأنســـتغرام) و(ســـناب تشـــات) وغيرها- عن هذا التوسّـــعِ من نســـاءِ القدوات في تتبّعِ الرُّخص، والضعف في الأخذ بالعزائم، خاصة فيما يتعلق باللباس والحشـــمة، بل ربما تَســـابق بعضُهن إلى تتبّع أقوالٍ قد تصل إلى حدّ الشـــذوذ! ما أثّر ســـلبًا في نظرة بقية نساء المجتمع إلى أولئك القدوات، وصـــارت الحالة التي مرّت بها أمُّ يعقوب تتجدَّد معها بعضُ الأســـئلة، كالســـؤال عن أثر القوامة من قِبَل زوجٍ أو والدِ هؤلاء النسوة؟ وهل هؤلاء القدوات يُدركون أثرَ ضعفِ القوامة في غيرهم من الناس من الذين ينظرون إليهم وإلى نســـائهم بمنظر الإجلال والتقدير؟ وهل يقع في خلَدِهم أن عددًا غيرَ قليلٍ من النســـاء سيتعلَّلن -عند تســـاهلهن في اللباس وغيره من منظاهر التراخي والتوسّـــع غير الحميد- بنسائهم اللاتي سبقنهم إلى هذا المركب؟

لقد كان الفاروق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُدرك أن الأعين تنظر إلى القُدوات وأهليهم نظـــرًا مختلفًا عن غيرهم، كما حدّث ابنُ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قائلًا: كان عمر بن الخطاب إذا نهى الناسَ عن شيءٍ دخل إلى أهله -أو قال: جمع- فقال: «إني نَهيتُ عن كذا وكذا، والناسُ إنما ينظرون إليكم نظرَ الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقَعوا، وإن هِبتم هابـــوا، وإني والله لا أوتَى برجلٍ منكم وقعَ في

شيءٍ مما نهيتُ عنه الناس، إلا أضعفتُ له العقوبةَ لمكانِه منّي، فمن شاء فليتقدّم، ومن شاء فليتأخّر»[1].

فهل يدرك القدواتُ ونساؤُهم الأثرَ الذي يُحدِثونه إنْ هم استقاموا، أو حادوا، أو توسّعوا؟ **ورحم الله مَن أعان على الثباتِ على الدِّين ولو بقدوةٍ صالحةٍ.**

(١) رواه معمر في جامعه، (رقم٢٠٧١٣)، وابن شبة في (تاريخ المدينة) (٢/ ٧٥١)، وسنده صحيح.

المستشرفون

٢٨/ ٢/ ١٤٣٨هـ

أرْسَلَتْ رسالةً نصية على الجوال -على غير العادة- تقول فيها: أنقذني يا شيخ، فلقد سَرَتْ إلى قلبي عدد من الشبهات بسبب فضولٍ دفعني إلى الدخول إلى أحدِ مواقعِ الملاحدة، وما كنت أظنّ أنها ستسري في قلبي سريان النار في الهشيم!

كانت هذه رسالةً من إحدى الأخوات اللاتي عرفتهن بالحرص على طلب العلم الشرعي، وكانت أسئلتها تدندن حول العلم وطلبه.

هنا تذكرت تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته من استشراف الفتن عمومًا، كما في الصحيحين: «**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تَشَرَّف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ أو معاذًا فليُعذ به**»[1].

والشاهد قوله: «**من تَشَرَّف لها تستشرفه**» أي من تطلّع إليها على سبيل التسلية أخذته غَلَبَةً؛ لأن عادة الفتن أنها تعلو المستشرف لها.

(١) رواه البخاري (رقم٣٦٠١)، ومسلم (رقم٢٨٨٦).

ومجمـــوعُ ما ورد من ألفاظ هذا الحديث تشـــيرُ إلى أن كلَّ حركة غير مشروعة في الفتن يصل من الشر إلى المتحـــرك فيها بمقدار حركته منها، ومَنْ قَرُبَ منها جرّته إلى نفســـها، والخلاصُ في التباعد منها، والهلاك في مقاربتها[1].

وهذا الحديـــث وإن كان يعني بالأصالة الفتن المعروفة التي يُشـــهر فيها الســـيف، ويضطرب فيها حبل الأمن، وتموج بالناس موْجًا، إلا أن عموم اللفظ يتســـع للقول بأنها تشمل فتنة الشبهات، لعظم خطرها، بل هـــي بوابةٌ لأمر أخطر من فتنة القتل، فإن موتَ الإنســـان في فتنةٍ ما على الإســـلام، خيرٌ من موته ملحدًا أو شاكًّا في دينه بسبب عاصفة الشبهات التي عصفت به بسبب اسشرافه لها، إما عبر الكتب، أو مواقع الإنترنت، أو مواقع التواصل أو غيرها من الوسائط والقنوات الإلكترونية.

ويزيد هـــذا الأمر وضوحًا: مـــا ورد في حديث عمـــران بنِ حُصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -في خبر خروج الدجال- أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من سَمِعَ بالدَّجَال فلينأَ عنهُ، فوالله إن الرَّجُل ليأتيهِ وهو يحسِبُ أنه مؤمنٌ فيتَّبِعُهُ مما يبعثُ به من الشُّـــبهاتِ، أو لما يَبعَثُ بهِ من الشّبُهات**»[2] فيا سبحان الله! تأمـــل هذا اللفظ! كم تجد فيه من النصـــح والتحذير من الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه؟!

فلكم رأينا، وســـمعنا بأناس كانوا على الجـــادّة، ولم يكن شيء أحبّ إليهم مـــن العلم ومذاكرته، والـــترددِ على بيوت الله، وثنـــي الرُّكَبِ في

(١) ينظر: الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ١٤٩).
(٢) رواه أبوداود (رقم٤٣١٩).

مجالسِ العلم، مع عاطفة جياشة على أحوال المسلمين، يترجمها بالدموعِ والعمل، والعزمِ على إصلاح ما يمكن إصلاحه، يزيّن ذلك حُسنُ سمْتٍ في الظاهر، وعناية بالسنة، فما هو إلا أن يفجأك خبر هذا بتغيّر حادٍّ في بوصلة التفكير والاهتمامات، وبرودٍ في العواطف، وانقلابٍ في الاهتمامات، وتحول غريب في التصورات، ظهر أثره في البعد عن السمت الذي يوافق السنة إلى ما يخالفها!

فإذا بحثت عن السبب؛ وجدتَ هذا النوع من الاستشراف للفتن العلمية أحد أهم الأسباب، فلقد أضحى صريعًا لفتنة (الاستقلال)، وموضة (الحرية المفتوحة في النظر المعرفي). دخل إلى هذا العالم المليء بالأشواك، والبحرِ المتلاطم من الشبهات، ظانًّا أن معرفته وإيمانه كافيان لتبديد ظلمة الشبهات، والخروج من بحرها المتلاطم، وإذا به يُفاجأ بأن نور معلوماته ضعيف وخافت لا يضيء له ما بين يديه فضلًا على ما هو أبعد، وأن طَوْقَ نجاته أشبَه بالأسفنجة، تشرّب تلك الفتن، فغرق هو وطوقه الموهوم!

إنّ أصعب الحالات التي يمرّ بها قلب المسلم أن يعيش لحظات الشكّ في أعزّ ما يملك وهو دينه، والتشكيك في مصادره -الكتاب والسنة- فضلًا على أن ينتقل إلى حال التنكر لها بالكلية!

ومن دعاه فضوله إلى القراءة في كتب هؤلاء أو الدخول في معرّفاتهم، فليتذكر وصية النبي ﷺ التي سبقت: «**فمن وجد منها ملجأ أو معاذًا فليُعذ به**»، وليكن شعاره وهو يسمع بهذه المنافذ المشكّكة -التي تروّج باسم المعرفة والفكر والثقافة- أن يقول كما قال النبي ﷺ

لما سيم على دينه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧].

ولا خير في معرفةٍ تورث شكًّا، ولا في فكْرٍ يورث كُفْرًا، ومَنْ لم يُرَ عليه آثار فكرِه وبحثه في سمته وطمأنينة حاله، وإصلاحِ واقعه، وقربه من الوحيين قولًا وعملًا؛ فلا يُنْتَظرُ منه أن يصلح غيره، فاللهم، إنّا نعوذ بك من الحور بعد الكور، وندعوك بما دعا به الراسخون في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

ابن سعدي ومركزية الأخلاق

١٣/ ٣/ ١٤٣٨هـ

عرفَ الناسُ العلامةَ السعدي (ت١٣٧٦هـ) عالمًا محقِّقًا، وما كانت مؤلفاته إلا أحد الشواهد على رسوخه وطول باعه في العلم، وكان من القبول والثناء عند الناس إبان حياته وبعد وفاته بالموضع الذي لا يَخفى.

ولم ينل الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المكانة لأنه عالمٌ يُلقي دروسًا، أو يصنّف كتبًا، أو يخطب كلَّ جمعة على المنبر فحسب؛ بل كان عالمًا مربيًا، قريبًا من الناس، يعيش همومهم، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويسعى في حوائجهم، ويجدون منه التوجيه المغلّف بالرحمة، ينصح ولا يفضح، يواسي ولا يسيء، فكان لنصائحه الأثر البالغ في نفوسهم، حتى صارت سيرته مما يتناقله الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد في بلده (عنيزة) حتى يومنا هذا، ومَنْ سمع من تلاميذه أو قرأ لهم شيئًا من ذلك؛ أدرك هذا بوضوح في نبرات أصواتهم، ونبض حروفهم[1].

(١) انظر في هذه المواقف: كتاب (مواقف اجتماعية من حياة الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي)، لابنه محمد وحفيده مساعد السعدي، ورسالة عنوانها: (من حكايات الشيخ عبدالرحمن السعدي) لإبراهيم التركي، وترجمة موسعة للشيخ في كتاب (تراجم لتسعة من الأعلام) لفضيلة الدكتور محمد بن إبراهيم الحمد (الترجمة السابعة).

ومع يقين الجميع بأن القدوة المطلقة هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أن الله تعالى من رحمته بالناس أن يقيم لهم بين فينة وأخرى أئمة في العلم والعمل؛ ليكون التأثر بهم أكثر وأقوى، فالقدوة المشاهدة ليست كالغائبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وإن الهمَّ الرساليَّ الذي كان يحمله الشيخ، والذي ترجمه بالثبات على المنهج، والصبر على التعليم، وحسن الخُلق مع عموم الناس؛ هو أحد الجوانب التي تتجدد الحاجةُ للتذكير بها في واقعنا اليوم؛ فلقد انفتح على الناس اليوم من وسائل التواصل ما لم يكن من قبل، وهذا يحتّم عليهم مزيدًا من الصبر على لأواء الناس ومشكلاتهم قدر المستطاع، واستفراغ الوسع في البذل والنفع، واحتمال الأذى.

ومتى غاب، أو ضعف حضور مبدأ الصبر، وحسن الخلق، والإحسان إلى الخلق بكل ما يمكن؛ فسيغيب، ويضعف أثرُ أهل العلم في مجتمعاتهم.

لقد كثرت الشكوى من بعض الناس مما يجدونه من بعض المنسوبين إلى العلم من بعض الجفاء والغلظة، أو الصدود عن قضاء حوائجهم في أخص ما يحتاجون إليه من أهل العلم، وهي الفتوى وإرشاد الحيارى وطالبي الحق! وهذا مما لا يليق بورثة العلم الشرعي المقتبس من سنا النبوة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

ولستُ أُنكر أن في الناس من لا يقدّر الوقت، ولا يراعي انشغالَ الشيخ، ولا يَعذر، لكن هؤلاء غالبًا تضطرهم الحاجة إلى السؤال، وهم يفترضون فيمن أكرمه الله بحمل شيءٍ من الإرث النبوي الصبرَ والاحتمال.

والناس يحبون في العالم وطالب العلم السعيَّ في حوائجهم؛ بقضائها أو الشفاعة فيها، فإن تعذّر ذلك فلا أقلّ من ملاقاتهم بالبشاشة والسماحة، على حدّ قول المتنبي:

لا خيلَ عندكَ تهديها ولا مالُ

فليُسعدِ النطقُ إنْ لم تُسعدِ الحالُ

وأذكرُ في هذا المقام صورتين من صور بذل علماء هذه الأمة، أدركنا واحدة منها، وقرأنا الأخرى في عيون التراجم:

أما التي قرأناها، فهي ما ورد في ترجمة محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، أبو عمر المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٠٧هـ)، حيث وصفه الذهبي بوصف معجب، فقال: «وكان قد جمع الله له معرفة الفقه والفرائض والنحو، مع الزهد والعمل، وقضاء حوائج الناس، وكان يحمل همّ الأهل والأصحاب، ومن سافر منهم يتفقد أهاليهم، ويدعو للمسافرين، ويقوم بمصالح الناس، وكان الناس يأتون إليه في الخصومات والقضايا، فيصلح بينهم، ويتفقد الأشياء النافعة كالنهر، والمصانع والسقاية، وكانت له هيبة في القلوب»[1].

وأما التي أدركناها: فهي أن شيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان الضعفةُ يزدحمون في مخيّمه في الحجّ، فكان بعض مرافقي الشيخ يتضايقون، فيقول لهم: هؤلاء مساكين، وكلها أيام، وتنتهي هذه الرحلة،

(١) تاريخ الإسلام (١٣/ ١٧٢).

اصبروا، واحتسبوا، ونحو هذه العبارات، التي كان الشيخ يمتصُّ بها غضبَهم، ويخفّف بها من تعبهم.

أولئكَ آبائي فجئْني بمثلِهم

إذا جمعتْنا -يا جريرُ- المجامعُ

اخلع نظارة اليأس

٢٧/ ٣/ ١٤٣٨هـ

أسباب الهموم والمكدّرات في هذه الحياة كثيرة، وفي المقابل؛ فإن أسبابَ السعادةِ والانشراح كثيرة ومتعددة، يعجز الإنسان عن عدّها.

ومن قرأ القرآنَ وجدَ أنه وصَفَ كثيرًا من المباحات بكلماتٍ تبعث على الفأل والسرور؛ فسمّى البنينَ والمالَ: ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

والقرآنُ صريحٌ جدًّا في التحذير من اليأس والقنوط، سواء في أمر التوبة بين العبد وبين ربّه، أو في علاقةِ العبدِ مع أقدار الله المؤلمة! فكيف ييأس مُذنبٌ وهو يسمع هذا النداء الذي يَسري إلى القلب من الرب الغني الكريم الرحيم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]؟!

وفي الصحيح: «**لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد**»(١). وحين اشتدت الكربةُ بيعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يقنط، بل حذّر بنيه من ذلك،

(١) رواه مسلم (رقم٢٧٥٥).

فقال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وفي السيرة النبوية يجد الإنسانُ ما يُدهشه من عيشه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الفألَ في كل أحواله، بل في أشـّد الأزمات لا تُسـمعُ منه كلمةُ يأسٍ أو قنوط، ومِن **ألطف المواقـف** في هذا المعنى: أنه لما كانت النفوس مشـحونة في صلح الحديبية بسبب الشروط -التي كانت في ظاهرها غبنًا للمسلمين- وجاء سـهيل بن عمرو مندوبًا عن المشركين، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مباشرة: «**سَـهُل لكم من أمركم**»[1] سـبحان الله! حتى في هذا المقام لم يدع الفأل باسم سهيل! ولسان الحال: وماذا يصنع اليأسُ إلا القعود وشماتة العدو والحاسـد؟! وماذا يفعل الفأل في النفوس إلا الانطلاق في فسحة الحياة الرحْبة، والعمل المثمر الجاد؟!

فأين اليائسون من واقع الأمة عن هذا الموقف، وموقفه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم الأحزاب، وغيرها من المواقف التي تهدّ الصمَّ الصِّلاب؟!

وفي الحثِّ على اختيار الأسـماء الحسـنة، وتغيير السـيئة مراعاةٌ لهذا المعنى بلا شك.

ومع هذا كلّه يأبى بعضُ الناس إلا أن يُردّد مفردات اليأس والقنوط! سـواء فيما يخصه، أو يخص واقع الأمة، وأننا حالةٌ استثنائيةٌ من موضوع الفأل، فهو يعيش اليأسَ في كل تصرفاته، ولا يكاد يفرح بشيء، ولا ينتظر شيئًا حسنًا، بل حتى الأشياء الحسنة تنقلب في عينه إلى سيئة! ولسان حاله

(١) رواه البخاري (رقم٢٧٣١).

يتمثل قول ذاك اليائس: لــو اتّجرتُ ببيع الطواقي والكوفيات، لخلق اللهُ أناسًا بلا رؤوس!

المشــكلة لا تتوقف عند هذا الحد، بل إن ســيطرة هذه المشاعر تُقْعد الإنسانَ عن القيام بأمورٍ نافعةٍ كثيرةٍ؛ لأنه حكم على نفسه بالفشل، وذبح نفسَه بسكينِ اليأس.

تَرِدُ عــليّ كما تَرِد على غيري رســائلُ تنضح باليأس مــن أمورٍ ثبت بالتجربة والواقع أن الفرج في مثلها حصل لأناس كثيرين، والمشــكلات التي يعبّر عنها اليائســون كثيرة، كمن تيأس من الزواج لظنها أن القطار فاتها، أو تيــأس من الولد بعد زواجها، وثالــث ييأس من حصوله على مصدر رزق مناســب، ورابع ييأس أن يتخلص من عادة ســيئة لازَمَها، وهكذا دواليك، وربّما أكّد لك بعضُهم صدق يأسه بأنه من عشر سنوات يدعو، والأمرُ كما هو!

قارِن بين هذه النفوس الغارقة في اليأس وبين قول مُوَرّق العجلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد دعوتُ الله بحاجة منذ أربعين سنة، فما قضاها لي، فما يئستُ منها»![1].

ومن شؤم التشاؤم: أن بعضَ هؤلاء إذا حدّثتَه بنصوصِ حسن الظن، وسيرة يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ونبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال لك: هؤلاء أنبياء! يعني: لا مجال للمقارنة بيننا! وكأنه يقول: إنها مجرد قصص للتسلية فحسب! ونسي، أو تناسى أن الله تعالى ختم سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١]، وأن الله قــال لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠].

(١) الورع لابن أبي الدنيا (رقم٤٧).

وفي كتاب (الفرج بعد الشدة) قصصٌ كثيرةٌ مدهشةٌ، تبعث على الفأل وحسن الظن.

كثير من الأمراض النفسية التي قيّدتْ بعضَ الناس -عافانا الله وإياكم منها- هي نفسها أصابت آخرين، ولكنها لم تقيّدهم، ولم تُقعِدهم، بل انطلقوا في فسحة الحياة، ومشوا في مناكبِ الأرض، والفرقُ بين الفريقين: هو كيفية التعامل معها؛ فالأول استسلم، والآخر هزم اليأسَ بالتوكل على الله، وذبحه بحسن الظن، والفأل الجميل.

فيا كل من أوجعته سياطُ المصائب، هل ترى مَن حولك مِن السعداء؟ إنهم يعيشون ذات الوقت والزمان الذي تَعيشه، يُكابدون ما تُكابِد، ويُعانُون ما تُعاني -بل ربما أشدّ- فلستَ وحدك! لكن الفرق بينك وبينهم: أنهم نظروا إلى الحياة بعين التفاؤل؛ فرأوا الجمالَ شائعًا في كلِّ ذراته، وأحسنوا الظنّ بالله، وأيقنوا أن خِيرتَه تعالى لهم خيرٌ من خيرتهم لأنفسهم، وأن قدَرَه فيهم أحسن من تقديرهم لأنفسهم.

إنك تستطيع -إذا أردت التغيير- وتوكلتَ على الله، وفعلت ما بوُسْعِك من أسبابٍ أن تبدِّل الأسوأ بالأحسن؛ إذا لم ترضَ بالأسوأ، وعملت لتغييره بروح التفاؤل، ولسان حالك يقول:

وَإِنِّي لَأَرْجُو اللهَ حَتَّى كَأَنَّنِي
أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صَانِعُ

وتذكّر:

سَيفتحُ اللهُ بابًا كنتَ تحسبُهُ
مِن شدةِ اليأسِ لم يُخلقْ بمفتاحِ

مَنْ قال: إنك لا تكسب؟!

١١/ ٤/ ١٤٣٨هـ

حين يجمعك لقاءٌ ببعض إخوانك من طلاب العلم والدعاة، ممن ساروا في طريق الدعوة وتعليم الناس مدةً من الزمن؛ فإنك تسمعُ من بعضهم لغةً تشي بالفتور، وتفيض بالتذمّر من الواقع، وتتكدرُ من مخرجات الدعوة، وربما وجدتَ مِن بعضهم من يذكر لك أن دروسه العلمية يحضرها عشرة طلاب أو أقلّ!

هذا الفتور إن كان عارضًا فهو طبيعي، ولا يكاد يسلمُ منه أحد، وفي ذلك الأثر المشهور: «**لكل عمل شِرة، ولكل شِرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك**»[1] وإنما الإشكال حين يتحول إلى تبريرٍ للكسل، والقعود عن القيام بما يقدر عليه من واجب الدعوة والبلاغ!

والملاحَظ في عبارات بعض هؤلاء الإخوة إبرازُ جانب الأرقام،

(١) رواه أحمد (رقم٦٤٧٧)، في قصة مراجعة عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحديث أصله في الصحيحين دون هذه الزيادة.

وتضخيم المكاسبِ المحسوسةِ، وكأنها حسابات بنكية، تأخذ بقدر ما تُوْدِع، فيقيسُ نجاح دعوته وجدوى الاستمرار في دروسه بكثرة ما يرى، ويشاهد من المستفيدين! وهذا قصورٌ بيّنٌ في الحكم، ومخالفٌ للقاعدة القرآنية المحكمة في باب الدعوة: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وهذا لا يلغي أهمية المراجعة، وتقييم العمل وتقويمه، والبحث عن أسباب القصور وتداركها، لكن هذا شيءٌ، وترك العمل شيءٌ آخرُ.

إن من اليسر والسعة في طريق الدعوة: أن الله تعالى لم يتعبدنا بل ولن يحاسبنا: لماذا لم يهتدِ على يديك أحد؟ أو لماذا لم يهتدِ على يديك إلا قليل؟ فمن الأنبياء -وهم سادات الدعاة- مَنْ يأتي يوم القيامة وحيدًا ليس معه أحد.

من المحزن أن يُنظر إلى مكاسب الدعوة بهذا الاختزال الشديد، أو أن تُرهن لوقتها الحاضر، أو الشيء الملموس، فمقصد القيام بالدعوة أكبر من عامل الزمن ومكاسب الداعية التي وفقه الله لها، فمن وراء ذلك قيام الدعوة نفسها، ورؤيةُ الناسِ للدعاة، وقيامُ الحجة عليهم، وغيرها من المقاصد.

ومن تأمل قصةَ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فسيجد فيها جوابًا عن ذلك السؤال المتكرر: ما دام سبق في علم الله أنه لن يؤمن معه إلا القليل، فلِمَ بقي كل هذه المدة؟

والجواب: أن بقاء الدعوة نفسها مقصدٌ شرعيٌّ أكبر من نتيجتها وعدد المستجيبين لها، وأبلغُ من ذلك -في وضوح الإجابة عن أمثال هذه التساؤلات-: أن الله تعالى يبعث أنبياءَ سبقَ في علمِه تعالى أنه لن يؤمن معهم أحد! أفكانت دعوتهم هدرًا؟ كلا، وحاشا لله.

ثـم دعنا نفترض أن معيار العدد والمخرجات المشـاهَدة هو من أهم المعايـير لقياس أثر دعوتك، وأنك لم تَرَ شـيئًا ظاهـرًا، فمن قال: إنك لم تكسـب؟ ألا تعلـم أن تثبيت النـاس على الخير الذي هـم عليه من أعظم المكاسب والإنجازات؟ ألسَـت تعلم أن من أهمّ أسباب الثبات الذي يتنعّم به كثيرٌ ممن يسـتمعون إليـك -وإلى غيرك من الدعاة وأهل العلـم- على الرغم من كثرة البث الفاجر الـذي يوجَّه عن طريق النت والفضائيات؛ هو بَذْلُكَ وبـذلُ إخوانك من الدعاة؟ عبر هذه الدروس والمحاضرات والخطب، ولولا ذلك لانحرفوا.

من قال: إنك لم تكسب؟! وأنت بقيامك بالدعوة نفسها تحقق عبوديةً لا يوفق لها أكثر الناس! أي ربح وكسب أعظم من هذا لمن صحت نيته؟

من قال: إنك لم تكسـب؟! إذْ ليس بالـضرورة أن يأتي إليك الناس -الذين انتفعـوا بدعوتك وتعليمك- ليقولوا لك: جـزاك الله خيرًا يا فلان، فدرسـك هذا ثبتني، أو أنا قد اهتديت بسـببك! فقد يحجب الله عنك أمثال هذه الكلمات، ولا يطلعك على هذه المكاسـب؛ رحمةً بك، إذْ قد يدخلك العجب المهلك أو الرياء الماحق للثواب.

من قال: إنك لم تكسـب؟! وأنت ترى هذه الوسـائط الإلكترونية المعـاصرة التي تنقل علمـك ودعوتك؟! وقد رأيتَ، وسـمعتَ كيف أن داعيةً يبث خطبته أو درسـه، فيتابعه في اللحظة نفسـها عشرات بل مئات الآلاف من المشاهدين، فضلًا على من يأتي ويشاهد هذه الدروس المحفوظة على الشـبكة العالمية، فيطّلع عليها بعد ذلك مَنْ شاء الله تعالى من العباد، إلى سـنين وعقود عدة من حين إلقائه، بل قد يكون صاحب

هذا الدرس قد مات، وما زال الناس يستمعون، ويستفيدون من ذلك الدرس!

إذن أنت لا تدري متى يستفاد منك، ومَنْ سيهتدي بكلمتك أو درسك، فقد يكون منهم -وبلا مبالغة- من ما زالوا بَعْدُ في أصلاب آبائهم!

مَنْ قال: إنك لا تكسب؟ وأنت تؤدي شكر نعمة اللسان بالدعوة إلى الرحيم الرحمن؟

مَنْ قال: إنك لا تكسب؟ وأنت تثبّت نفسَك بما تلقيه من العلم والخير؟ قال أبو حازم: «إني لأعظ، وما أرى للموعظة موضعًا، وما أريد بذلك إلا نفسي»[1].

مَنْ قال: إنك لا تكسب؟ وأنت تبرئ ذمتك بالبلاغ، وتدفع عن نفسك معرة السؤال: ﴿مَّعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤].

مَنْ قال: إنك لا تكسب؟ وأنت لا تدري في أي طلابك أو المستمعين لمحاضرتك البركة؟ فقد يحمل عنك علمًا، ثم ينشره في الخلق نشرًا تراه أعظم ما يثقل به ميزانك، فنحن لا نعرف من الذي أثّر في ابن تيمية ولا في محمد بن عبدالوهاب ولا ابن باديس والإبراهيمي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فضلًا على مئات ممن حفلت بهم كتب التراجم، من العلماء والمصلحين في غابر القرون.

(١) حلية الأولياء (٣/ ٢٤٠).

أحــدُ العلماء المعاصرين المغمورين إعلاميًّــا، قال لي مرةً: إن هدايتي كانت بســبب مجلس وعظ حضرته عام ١٤٠٢هـ عند الشــيخ أبي بكر الجزائري في المسجد النبوي، ختم الله له بالحسنى.

وتأمل هذه الكلمة المسددة من ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا أعلم بعد النبوة شيئًا أعظم من بث العلم[1]، فبذل العلم أعظم من بذل المال.

وثمة معنى أختم به هــذه الأحرف، وهو: أن الثبات على الدعوةِ هو في ذاته دعوة، والثبات على المنهج رســالة تتناقلها الأمة جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن!

لقد أدركنا من كبار مشــايخنا من بلغ منزلة العلماء الراســخين، ومع هذا لم يكن يجلس إليه إلا بضعة شــباب، بــل أحيانًا يأتي إلى الجامع، ولا يجد طالبًا واحدًا، ومن هؤلاء شــيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه كان أحيانًا -وهذا في أواخر التســعينيات الهجرية- يأتي ولا يجــد في الجامع أحدًا، فيبقى فترة المغرب يقرأ القرآن، حتى يؤذن لصلاة العشــاء حتى لا يغير منهجه في التزام وقت الدرس، فثبت على هذا، فلم يمت إلا ومســجده يكتــظُّ بمئات الطلبة، وأما المنتفعون بعلمه فلا يحصيهم إلا الله، تُرى أي شيء كان ابن عثيمــين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لو ترك التعليم؛ بحجــة ندرة الحضور؟ وأي دروسٍ عملية تربوية كانت ســتفوتنا، لو تخلى عن ثباته وصبره على التعليم؟ لقد كان صبره دعوةً، وثباتُه مدرسةً أخرجتْ للأمة كتبًا مباركة، وتلاميذ نفع الله بعلمهم ودعوتهم.

---

(١) شعب الإيمان (٣/ ٢٦٣).

وبعــد: فها أنت -أيها الداعية المبارك- رأيتَ أن خزانتك ملأى بكل هذه المكاسب العظيمة، فعلامَ توقف كل هذه الأرباح بيديك تحت وطأة البحث عن النتائج السريعة؟!

اللهم، فاجعل **حياتنــا دعوةً، ودعوتَنا حيــاةً**، وثبتنا على الحق حتى نلقاك، واجعلنا من أئمة المتقين.

هموم وشجون حول بحوث الترقية

(٢/١)

٢٥/٤/١٤٣٨هـ

أضحت بحوثُ الترقية التي يقدّمها الأستاذُ المساعدُ أو المشاركُ للانتقال إلى الدرجة التالية؛ محلّ حديثِ الوسط الأكاديمي في الآونة الأخيرة، خاصةً من الغيورين الذي يَفحصون البحوث، ويَحملون همَّ البحثِ العلميّ، والرقيّ به لخدمة العلم، حيث صارت البحوثُ الضعيفةُ في مبناها ومحتواها تشكّل ظاهرةً مُقلقةً، فضلًا على انتشار السرقات العلمية عند بعض الباحثين! ولستُ بهذا أفشي سرًّا، فالمتابع لمواقع التواصل -فضلًا على من يمارس الفحص، أو عضوية إحدى المجلات العلمية المحكّمة- يدرك هذا بسهولة.

ومع وجود فئةٍ من الفاحصين -يمكن وصفها بالتشدد الذي لا مستند له- إلا أن الحديث في هذه الأسطر ليس موجهًا لهم، بل هو موجّه إلى من يمكن يمارسون (**المنكرَ العلمي**) في ضعف الفحص، والتساهل في إجازة البحوث، ما يوجب الاحتسابَ عليه من جميع الأطراف المعنيّة، وعلى رأسها: الفاحصون، وأعضاء مجالس تحرير المجلات العلمية المحكّمة.

أمـــا الفاحصون فعليهم الحملُ الأكبر؛ فهـــم القنطرةُ الأولى التي تمرُّ عليها هذه البحوث، وبقدْر إحكامِ هذه القنطرة؛ ينعكس هذا على جودة البحوث، وتقليل مواضع الزلل منها، ومع يقيني أن البحثَ مســؤوليتُه في الدرجة الأولى على الباحث نفســه؛ إلا أن الفاحص -الذي يغار على العلم- لا يقبــل أن يمرَّ البحثُ الهزيل على حســابه، دون فحصٍ دقيقٍ يراعي العــدلَ والإنصافَ؛ إذْ هو شريك في أمانة النُّطق بالحكم على هذا العلم الذي حوتْه تلك الأوراق.

أقــول هذا وأنا أدرك أن في البيئة الجامعية -ولله الحمد- أعدادًا كبيرةً ممــن يغار على العلم وأهله، لكن لا يمكن التغافل عن عددٍ غير قليل من الفاحصين الذين لا يُدقّقون فيما يُســند إليهــم، وإلا فكيف نفسّرُ إجازة بحوثٍ فيها من الضعــف والخلل ما يدركه الإنســانُ من أوّل وهلة؟! وبماذا نعلّلُ عوْدةَ بعــضِ البحوث من فاحصَيْن اثنين: أحدهما لا يكتب أيّ تعليق، ويجيزه للنشر، وفاحصٌ آخرُ يملؤه بملاحظات، ويردّه؟!

من الممكــن تفهّمُ اختلاف وجهات النظر إلى حــدٍّ ما، لكن إلى هذه الدرجة، فغير مقبول بتاتًا! فأين الخلل؟

لئن كنا نذمُّ التشــدد في النقد، ومجافاة العــدل والإنصاف، ونمقت العبــارات المقذعــة في وصف الأخطــاء والأوهام؛ فإن ذمّ التســاهل والتهاون أولى بذلك؛ لأثَرِه الذي لا يَخفى.

وهذا التهاون والتساهل يجعلُ مهمَّة إخواننا أعضاء هيئة التحرير في المجلات العلمية كبيرة، ومسؤوليتهم عظيمة في:

- ضرورة التأكد من مستوى البحوث.
- وفحصِ ملاحظات المحكّمين.
- وتعديلِ الباحث لملاحظاتهم.
- ورفعِ سقفِ القبول في المجلة.

ففي هذا صيانةٌ للعلم وأهله، ورقيّ بمستوى تلك البحوث.

ولا يخفى أن قبول البحث الضعيف يعود ضررُه على العملية التعليمية برُمّتهـا، فهذا الباحث قدّم بحثَه ليترقّى للدرجـة التالية، وهذا يعني أن مساحةَ صلاحياته ستتسع في التدريس في الدراسات العليا، والإشرافِ على الرسائل، ومِن ثَمَّ تحكيم بحوث الترقية، فكيف يُرجى من مثل هذا الباحث الذي ظهر ضعفُه في بحوثه أن يخرّجَ أجيالًا قويَّةً في العلم؟!

أمّـا سُراق البحوث، فإن الغَيرة على العلم تقتـضي الحزمَ والصرامةَ معهم، ولئن كان أهلُ الحديث -فيما مضى- يعدّون سـارق الحديث في جملة الكذابين والهلْكى، ودُوّنت أسماؤهم في كُتب الضعفاء والمتروكين، نقرؤهـا حتى يومنا هذا وإلى يـوم القيامة -صيانةً للسـنة، وذبًّا عنها- فليكن هناك حزمٌ وصرامةٌ في ردْع هؤلاء السارقين؛ ليكون الردعُ زاجرًا لمن تُسوّل له نفسُه السرقةَ مستقبلًا.

ومن ذلك:

- توظيف كل السبل التقنية -وغيرها- لكشف السرقات.
- ووضعُ قائمةٍ تتبادلها الجامعات والمجلاتُ العلميةُ لمن يثبت بالدليل

القاطع سرقتهم لبحوث غيرهم، يَسبقُ ذلك وضع ضوابط مُحَدِّدةٍ لمعنى (السرقة العلمية) ومتى يستحق الباحث هذا الوصف؟ منعًا للإفراط والتفريط، وقطع الطريق على الاجتهادات الفردية.

ومن واقع تجربة لا بأس بها، أستطيع القول: إن هناك مؤشرًا خطيرًا يقول بلغة واضحة:

أدركوا بحوث الترقية!

وهذا يوجِب على الجميع التعاون لإيقاف هذا المؤشر من الانحدار، حتى لا نُصاب بأعداد من الباحثين ترقّوا على أكتاف بحوث هزيلة، سيظهر أثرُهم فيمن تحت أيديهم!

إنني لا أدعو للتشديد، بل للاعتدال الذي يخفِّف من هذا التردي الذي بدَتْ آثارهُ، ولولا خشية أن يُستدل ببعض الأمثلة على أصحابها لذكرتُ شيئًا من النماذج يَندى له جبينُ العلمِ!

وما سبق ذكره لا يُعفي جامعاتنا من مسؤوليتها أمام الله، ثم أمام العلم والتاريخ، وعليها أن تُوْلي هذا الموضوع أهميّةً تليق به، وما دام أن جامعاتنا لا تُصنَّف بأنها جامعات بحثية بالمعنى العلمي الدقيق؛ فلتتحِ الفرصةَ للترقية بغير البحوث المعهودة، لعلّ هذا مما يقلّل من هذا المستوى المتردي الذي أضحى حديث الغيورين على البحث العلمي بمختلف تخصصاته.

ختامًا، إذا لم يكن الحامل على البحث العلمي -وفي التخصصات الشرعية بالذات- الديانة، والرغبة في الإفادة؛ فلا يتعنَّ الباحث! فإن

التَّبِعــةَ ثقيلة في الدنيا قبــل الآخرة، وإذا لم يتدثّر طالــبُ العلم بالأمانة العلميــة؛ فليبكِ على نفســه، وليعرض النصوص الشرعيــةَ الواردةَ في الأمانة على قلبه، وليتذكر قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المتشــبع بما لم يعط، كلابس ثوبي زور**»[1]، وليضع هذه الآية نصب عينيه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

(١) رواه البخاري (رقم٥٢١٥)، ومسلم (رقم٢١٢٩).

هموم حول بحوث الترقية (٢ / ٢)

٧/ ٥/ ١٤٣٨هـ

بعد أن نــشرت مقالي الماضي وردتني من مشــايخي وزملائي كلمات تدور على أمرين رئيسين:

الأول: التأييد لما تضمّنَه.

والثاني: التحفُّظ على وصف (ضعف البحوث) بأنه يشــّكل ظاهرةً، وأن هذا فيه مبالغة.

واقترح بعضُهم: التركيز على موضوع (السرقات العلمية)، فهو الذي فيه فشوٌّ وظهورٌ.

وبقدْر سروري بقراءة هؤلاء الكرام لهذا المقال؛ فإنني أشكرهم على هذا التواصل، الذي يُثري هذه المقالات، ويَلفت الانتباه إلى ما تضمَّنتْه، بغض النظر عن الموافقة والمخالفة، ومع وافر الاحترام لوجهات نظر كل واحدٍ منهم.

وأودّ أن أُضيــف ههنا شــيئًا، وهــو أن ما ذكرتُه مِــن تنامي ظاهرة (الضعف العلمــي) في مضامين بحوث الترقية؛ لم يكــن رأيًا فرديًّا، بل

وافقني عليه عددٌ من الزملاء في تخصّصات شرعية وغير شرعية، ولم أكتبه إلا بعد أن حكّمتُ قرابة الأربعين بحثًا من بحوث الترقية، وردتْني من جامعات وكراسي ومراكز بحثية عدة، فلمستُ ما ذكرتُ.

ونظرًا لأن بعض الأفاضل ظَنّ أن في كلامي مبالغة؛ فإنني مضطرٌّ إلى إيراد بعضِ الأمثلة من بحثٍ واحد وردت فيه عشرات الأخطاء والأوهام؛ ليعذرني من وَصف ما ذكرتُه بالمبالغة:

المثال الأول: نقل الباحث في سياق ترجمة علي بن زيد بن جدعان أن «الإمام يحيى القطان كان ينتقي حديثه عن علي بن زيد»، وبالرجوع للمصدر الذي أحال إليه نجد العبارة: «يتقي الحديث عن علي بن زيد»، وكم بين العبارتين مِن فرق! ولا تظن أن العبارة متصحِّفة في المصدر الذي أحال عليه؛ بل هي صحيحة، ولو فرضنا أنها مصحّفة، فأين دور الباحث في تلمّس هذا التصحيف الذي لا يَخفى على من عرف حال علي، وشدّة يحيى في النقد؟!

المثال الثاني: نقل الباحث عن ابن مهدي قوله في أحد الرواة: «حديثه عن الحجار بن مقارب» هكذا، ثم انتهى النقل، وبالرجوع إلى المصدر الذي أحال إليه نجد أن صواب العبارة: «حديثه عن الحجازيين مقارب»، ولو افترضنا أنها قد تصحَّفت في المصدر؛ فلا بد أن يكون للباحثين دورٌ في اكتشاف الخلَل، فالجملة بدأت بالمبتدأ، ولم يأتِ الخبر، إذن فلا بد من وجود خلل في النقل.

كلّنا ذو خطأ، ولا يَسْلم مِن وهْم، لكن من الأخطاء ما لا يُحتمَل، وهي -على طريقة بعض النُّقاد من المحدّثين- قد تَقضي على حديثِ الراوي كلّه.

والإنصاف يُحتّم عليّ أن أقول: إن البحوث الجيدة -التي فيها إضافات علمية- كثيرة ولله الحمد، وهذا هو المأمول والمرجو من باحثٍ مرّ بتجربة الماجستير والدكتوراه، ويُنتظر منه الإثراء والإضافة للتخصّص، بعيدًا عن دعوى الكمال أو المثالية.

وإذا كان الحديث عن التساهل في فحص (بعض البحوث)، فيقابل هذا: تشدّدٌ وتعنّتٌ مِن بعض الفاحصين في التقييم، ورصد الملاحظات، فثمَّة مَن يُبالغ في معايير الإضافة للتخصص، والتميز في البحث، مع أنها مسألة نِسبية.

بل مرّ بي نماذج تدلّ على أن الفاحص -مع تعنُّته- إلا أنه يكتب بنَفَس يَشعر معه المنصِف أنه كتب ما كتب دون تأمُّل وتروٍّ؛ إذ ذَكر أحدُ الإخوة أنه قدّم شرحًا لمتنٍ مشهور جدًّا، ليكون وِحدة من وحدات الترقية المطلوبة، وقد كُتب على الغلاف اسم الشرح، واسم صاحب المتن المشروح، واسمُ الشارح بفاصل بيّن وهو: تأليف فلان بن فلان، فتعقَّب هذا الفاحصُ ما كُتب على الغلاف بأن القارئ لا يَدري لمن المتن، ولا لمن الشرح!! وأردفَ ذلك بقوله: لا جديد في الكتاب!

بينما قال فاحصٌ آخرُ للكتاب نفسه: أقترح أن يُدرَّس في الجامعات؛ لسهولة أسلوبه، ومحافظته على اللغة العلمية، إلى غير ذلك من المزايا التي عدّدها.

ومما يُكدّر النفسَ: أن تَصدُر بعضُ العبارات التي لا تَنبغي من الفاحص للباحث! ومن ذلك قول أحدهم -لما رأى لحنًا نادرًا لا يَكاد يَسلم منه أحد-: «هذا خطأ لا يَصدر من طالبٍ في رابع ابتدائي»! وشدّد

النكير على بعض التصحيفات النادرة، التي لا يكاد يسلم منها بحث، ولك أن تتصور أن ما يكتبه هذا الفاحص موجّه لأستاذٍ جامعي مثله!

وأطلعني أحدُ الزملاء على تعليقٍ لأحد الفاحصين على بحثٍ له، وفيه: ليس في البحث أي إضافة ولا جديد فيه! مع أن البحث -بيقين- لم يُكتب فيه من قبل، وبغضّ النظر عن قناعة الفاحص بالمضمون؛ فأين الإنصاف؟! ما ضرّه لو شكر الباحِث على البدء بالكتابة في هذا الموضوع، وأن له على البحث بعض الملاحظات؟

وذكر لي زميلٌ آخر أن الفاحص اتّهمه بالتدليس والتلبيس، وأنه يوهِم القارئ بأن المعلومات المحال على مصادرها موجودة فيه، وهي ليست كذلك، ما يدل على أنه يَنقل عن غيره! هكذا قال الفاحص، مع أن المعلومات بلفظها موجودة في المصدر!

وزميل رابع يقول: إن الفاحص عتَب على المجلة كيف تَقبل مثل هذا البحث، دون إبداء ملحوظات علمية تُذكَر!

والأمثلة عندي كثيرة، لكن أردتُ أن أُبيّن أن التعنُّت أو رمْي التُّهَم موجود عند بعض الفاحصين، دون دليلٍ وبرهانٍ علميٍّ واضحٍ.

وأخطرُ شيءٍ في هذا الباب -الذي يجب الحذرُ منه-: دخولُ الهوى في الفحص، خاصةً أن اسم الباحث مكشوفٌ عند فحص البحوث، وقد يكون بينهما اختلافٌ في بعض المسائل العلمية أو المنهجيّة، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

ومن جميل مـا خطّته يراع العلامة المعلمـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين تحدَّث عن بعض مسـالك الهوى الدقيقة، فقـال: «ولم يكلَّف العـالِمُ بألا يكون له هوى؛ فإنّ هذا خارج عن الوسـع، وإنما الواجب عـلى العالِم أن يفتِّش نفسَـه عن هواها حتى يعرفه، ثم يحترز منه، ويُمعِـنَ النظرَ في الحق من حيـث هو حق؛ فإن بان له أنه مخالفٌ لهواه آثرَ الحق على هواه...، والعالِم قد يُقصِّر في الاحتراس من هواه، ويُسـامح نفسَـه؛ فتميل إلى الباطل، فينصره وهو يتوهّـم أنه لم يخرج من الحق، ولم يُعادِه! وهذا لا يكاد ينجو منه إلا المعصوم، وإنما يتفاوت العلماء، فمنهم من يَكثُر منه الاسترسـال مع هواه، ويفحُش، حتى يقطع مـن لا يعرف طباع الناس ومقدار تأثير الهوى بأنه متعمِّد، ومنهم من يقِلُّ ذلك منه ويخِفُّ»[1].

والمقصود من هذا المقال والذي سـَبقه: التـواصي بالخير، والدعوة إلى الاجتهـاد في فحص البحـوث بقصْد النصح، وعلى جـادة العدل والإنصـاف؛ قيامًا بأمانة العلـم وواجب النصيحة، مـع لزوم الأدب العلمي، والعبـارات التي تحقِّق المقصود، وتقـرّب، ولا تنفِّر، وترتقي بالبحوث للمستوى المأمول، والله المستعان.

(١) التنكيل (٢/ ١٩٧).

على عتبات مدرسة الإمام الخطابي (١ / ٢)

٢٣/ ٥/ ١٤٣٨هـ

حين يقدّر لك أن تقرأ لإمامٍ واسع الاطلاع، حسَنِ التصنيف، رشيقِ العبـــارة؛ فهذا يعني أنـــك تعيش في جنةٍ من جِنـــان الدنيا، وروضةٍ من رياض الأُنْس، وهذا ما أجده مع بعض الأعلام، والأئمة الكبار، ومنهم الإمام الخطابي -حَمْدُ بن سليمان- (٣٨٨هـ).

ومن تصانيفه الدالة على تبحّره كتابه (غريب الحديث) والذي يهمّني في هذه الأســطر مقدّمته التي لم تخلُ من عبارات مشرقة، ونصائح غير مباشرة لطالب العلم، أحببتُ أن تشاركوني -معشر القراء الكرام- جمالها وفائدتها.

- **الخطابي والدراسات السابقة:**

حـــين أراد اســـتعراض ما يُســـمى اليـــوم في الحقـــل الأكاديمي الـ (دراســـات السابقة) أَثنى ثناءً عاطرًا على مَن سبَقه، وأنصفهم، فقال عن كتاب أبي عبيد القاســـم بن سَلّام: «فإنه قد انتظم بتصنيفه عامةَ ما يُحتاج إلى تفسيره من مشاهير غريب الحديث، فصار كتابُه إمامًا لأهل الحديث، به يتذاكرون، وإليه يتحاكمون.

ثـــم انتهج نهجَه ابنُ قتيبة أبو محمد عبدالله بن مســـلم؛ فتتبّع ما أغفله أبوعبيد من ذلك، وألّف فيه كتابًا لم يَألُ أن يبلغ به شـــأوَ المبرِّز الســـابق، وبقيتْ بعدهما صُبابة، توليتُ جمعَها وتفسيرها مستعينًا بالله، ومسترسلًا إلى ذلك بحسن هدايتهما، وفضل إرشادهما».

بعـــض المصنّفين ومحققي الكتب من أهل عصرنا، يظن أنه لا يمكن لكتابه أن يروج إلا أن يَغمط حقَّ مَن ســـبقه سواء المجيد أو المسيء؛ ليثبت -بزعمه- أن كتابَه أو تحقيقَه هو الأم في بابه، وكأنه يقول بلسان الحال أو المقال:

لا تَذكر الكُتْبَ الســـوالفَ عنـده

طلعَ الصبـــاحُ فأطفئَ القنـديـلا!

وقد رأيت نـــماذج من مقدمات هؤلاء يَعجـــب منها الباحث، فترى بعضَ المحققين ينتقد أشياء على مَن سبقه، ثم يقع في مثلها أو أشد! ومن ذلك: أن أحدَهم عابَ النســـخةَ التي قبْله بكثرة التصحيفات، فوجدته وقع في ذات ما ذمّ به مَن قبله!

تأمل الفرقَ بين طريقة الخطابي في الثناء على من ســـبقه، واســـتفادته منهم، وبين طريقة مَن ذكرت.

- **العلم من المحبرة إلى المقبرة:**

قـــال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مضى عليَّ زمانٌ، وأنا أحســـب أنه لم يبقَ في هذا الباب لأحدٍ متكلَّم، وأن الأول لم يَترك للآخر شـــيئًا...، ثـــم إنه لما كثُر نظري في الحديث، وطالت مجالســـتي أهلَه، ووجدتُ فيما يمر بي، ويَرِد عليّ منه ألفاظًا غريبة لا أصل لهـــا في الكتابين؛ علمتُ أنّ خلاف ما كنت أذهب

إليــه من ذلك مذهبًا، وأن وراءه مطلبًــا، فصرفت إلى جمعها عنايتي، ولم أزل أتتبع مظانّهــا، وألتقط آحادَها، وأضم نشرهــا، وأُلفّق بينها؛ حتى اجتمع منها ما أحب الله أن يوفِّق له، واتســق الكتاب، فصار كنحوٍ مِن كتاب أبي عبيد أو كتاب صاحبه».

هكذا طالــب العلم والعالم؛ لا يفتــأ من النظر والبحــث، والمطالعة والمراجعة، ومتى ظنّ أنه اكتفى فقد نادى على نفسه بالقصور، وقد سمعتُ ورأيت من شــيخنا الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذلك العَجَب، فلا يستنكف أبدًا من قول: «لا أعلم»، و: «تحتاج إلى مراجعة»، وســمعتُه وقد نيّف على الثمانين يوصي بالتحضير ومراجعة المسائل قبل إلقاء الدروس، ويُخبر عن نفسه أنه يفعل ذلك، وقد قال إمامُه من قبل: مع المحبرة إلى المقبرة[1].

- **مقاصد التصنيف:**

ختــم مقدِّمتَه معلِّلًا غرضَه من تصنيفه لهذا الكتاب، فقال: «الغرض فيــه: أن يظهر الحــق، وأن يبين الصــواب، دون أن يكــون القصد به الاعتراض على ماضٍ أو الاعتداد على باقٍ».

لله هذه النفوس! مــا أرقى مقاصدَها، وأســمى غاياتها، ولعل هذا الصفاء في النية، والصدق في الغاية من أســباب هذا القبول الذي نشره الله لمصنفات هذا الإمام، فليســت الغايةُ من التصنيف تسويد الأوراق، ولا الغضّ من جهودٍ سبقته ليجعلها سُلمًا لظهوره، وإنما «ليظهر الحق»، فهنيئًا لمن جعل هذه الغاية أمام عينيه حين يجرّد قلمَه مِن غِمْده ليكتب ما يكتب. وللحديث صلة إن شاء الله.

(١) مناقب الإمام أحمد. لابن الجوزي (ص٣٧).

على عتبات مدرسة الإمام الخطابي (٢/٢)

٦/٦/١٤٣٨هـ

أشرت في المقال السابق إلى جملة من الدروس المنهجية والتربوية المستفادة من مقدمة الخطابي لكتابه الغريب، وفي هذا المقال تتمة بقية الوقفات.

- **الاعتذار للسابق:**

حين يَظفر بعضُ الباحثين بشيءٍ فات مَن قبله ربما أخذتْه نشوةُ الفرح، وهذا القدْر مفهوم، لكن الذي لا يَجمُل بطالب العلم أن يَقلب هذه النشوة إلى فرصةٍ للتنقص ممن سبقه بقلة الاطلاع، ونحو ذلك، أما الإمام الخطابي فله مع هذا الشعور شأنٌ آخر، إذ يقول: «ولعل بعضَ ما نأثره منها -أي من مواد كتابه الغريب- لو بلغ أبا عبيد وصاحبَه لقالا به، وانتهيا إليه، وذلك الظن بهما يرحمهما الله، فأما سائر ما تكلّمنا عليه مما استدركناه بمبلغ أفهامنا، وأخذناه عن أمثالنا؛ فإنا أحقّاء بألا نزكيه، وألا نؤكد الثقة به».

قارن هذا الاعتذار الراقي بما سبقت الإشارة إليه في أول فقرات هذا المقال، ثـم انظر كيف وصف جمعه بهذا الوصف الذي نأى بنفسـه عن مدحه والثناء عليه -وهو جدير به- لكنه ترك ذلك للقراء والعلماء. نعم، قد يقع من بعض الأعلام ثناءٌ على كتابـه لغرضٍ معتبَر، لكن المؤكد أنه ليس شـأنًا مطردًا عند المصنّفين الكبار، بل عادتهم الإزراء على نفوسهم ومؤلفاتهم، ورحم الله امرأً عرف قدْر نفسه.

- **مراكمة الكتب:**

«وقـد بقي في هذا الباب كتبٌ غير ما ذكرنـاه، منها كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى...، ثم ذكر ثمانيـة كتب، ثم قال: إلا أن هذه الكتب على كثرة عددهـا إذا حُصِّلت كانت كالكتاب الواحد، وفي الكتابين -يعني: كتاب أبي عبيـدة وابن قتية- غنى ومندوحة عن كل كتابٍ ذكرناه قبل». يغرم بعضُ طلاب العلم بجمع الكتب على حسـاب العناية بالتحصيل والتأصيل، فيذهب عمرُه ومالُه وهو يجمـع دون أن يقرأ، أو يقرأ قراءةً أُفقية ورأسية، فيصبح مثقفًا في ذاك العلم لا مؤصّلًا، ولو أنه قرأ، وأتقن أصـولَ كُتَبِ كلِّ فنّ؛ لضبـط بقية الكتب، ولاختصر على نفسـه زمنًا وجهـدًا كبيرين في تتبّع المصنفات، ووجّه همّتـه لبقية العلوم التي يحتاج إلى ضبطها وإتقانها.

وكم يُحسِـن العالمُ وطالـبُ العلم المتقن لطـلاب العلم حين يذكر خلاصةَ تجربته مع كتب الفنّ التي طال تمرّسه معها؛ ليوفر على غيره عناءَ السير في طريقٍ غيره أولى به منه، كما فعل أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- **طبعة مزيدة ومنقّحة:**

«وأمـــا كتابنا هذا فقد كان خرج لي بعضُه وأنا إذ ذاك ببخارى في ســـنة تســـع وخمسين وثلاث مئة، فطلب إليّ إخواننا بها أن أمكّنهم من انتساخه، وأَحبوا أن يتعجلوا فائدتَه من غير تعريج عليّ في إتمامه؛ فأفرجت لهم عنه، ولما يأتِ النظر بعدُ على استيفاء ملاحظته، ولم يقع الاحتشاد مني لتهذيبه... ولما تنفّس الوقت، ورزق الله التوفيقَ لما أحب أن يوفِّق منه، وتصفّحت ما في تلك النســـخة تبيّنت في أحرفٍ منها خللًا، فغيرتُ، وأصلحتُ، وزدتُ وحذفتُ، ورتبّتُ الكتابَ على الوجه الذي استقر الآن عليه».

هـــذا درسٌ آخر في أهمية المراجعة (للطبعـــة الأولى) للكتاب، فعمَلُ البـــشر لا يخلو من قصور، ومِن فضل الله على الإنســـان أن ينتشر كتابُه، ويُتلقـــى من القرّاء، فتظهـــر لبعضهم ملاحظاتٌ وتنبيهات يَســـتدركها الكاتـــبُ في الطبعة الثانية؛ ما يجعل للطبعـــة الثانية ميزة، ويحق أن يكتب على غلافها: «مزيدة ومنقّحة».

بعضُ المؤلفين قد ينتشر كتابُه، ويُطبع طبعات عدّة، ومع هذا فلا تكاد تجد فرقًا بين الأولى والخامســـة، على الرغم من تقادم الأولى، ولا شـــك أن هذا خلاف ما ينبغي؛ فالإنســـان الـــدؤوب في الطلب، لا ينفك عن نقد نفســـه قبْل الآخرين، ولا يزال يكتشف ضعفَه ونقصَه، وأن الحاجة للتســـديد والتقويم مستمرة، حتى يســـتوي الكتابُ على سوقه، ويحقّق مرادَه الذي صُنّفَ لأجله.

رحـــم الله الإمام أبا ســـليمان الخطابي، فكـــم أفاد، وأجـــاد في هذه الإشـــارات، التي تمثل منهجًـــا ينبغي أن يُحتذى، وهنيئًـــا لمن جمع الله له بين حب العلم، والدأب فيه، مع الخُلق الحســـن، والعبارة الرشيقة، التي يتحقّق بها النصح في أعلى صوَرِه الممكنة كما كان هذا الإمام.

مناسبات غير مؤجلة

٢٩/٦/١٤٣٨هـ

إذا كانت العبارةُ الشهيرةُ: «لا تؤجِّل عمل اليوم إلى الغد» حاضرةً في حياة الناجحين؛ فإنها في المناسبات والمواعيد التي لا تحتمل التأجيل أكثر حضورًا وأثَرًا.

أحدُ الأصدقاء كان له موعدٌ مع وفدٍ سيستقبلهم في بيته، ففجَأَه خبرُ وفاة صديقٍ له، فذهب إلى جنازته، ووكّل من يستقبل الوفد، فلما عاد إلى البيت متأخّرًا اعتذر منهم، وبيّن السبب، وقال: الموت ليس له موعدٌ مسبَق!

وهذه الجملة الأخيرة -الموت ليس له موعد مسبَق- تُترجِم الحكمة في التعامل مع أمثال هذه المواقف، فالإنسان لا يموت إلا مرةً واحدة، وأهلُ البيت -في مصابهم- في حاجة لمن يُسـلّيهم، ويُصبّرهم، ويخفّف عنهم، وإذا ذهب وقتُ الصدمةِ الأولى؛ لم يكن للتعزيةِ والتسلية موقعَها المناسب.

وهذا الموقـفُ الحكيم، يُقابله موقفٌ مُغايرٌ لأحد الإخوة الذي فُجِعَ بموت أخيه، ولكنه اسـتغرب من بعض زملائه في العمل، ممن جاوزت صحبتُهم عِقدين من الزمان، لم يكلِّف أحدٌ نفسَـه بالاتصال فضلًا على الحضور! بل عزّاه بعد مدة طويلة -نسبيًّا- قد برَدَتْ معها المصيبة.

ومثل ما قيل في مناسبة العزاء يُقال في مناسبة الزواج؛ فهي نادرة التكرر، فإضافة إلى المعنى الشرعي المتعلق بإجابة الدعوة بشروطها المعتبرة، ثمّةَ معنًى آخر يتعلق بكون هذه المناسبة من مناسبات العُمر، وقد يكون الحاضرُ لا يُلقي بالًا لأثر حضوره -لكثرة حضوره للمناسبات، وعنايته بها- بينما صاحب الدعوة يعني له ذلك الشيءَ الكثيرَ.

لقد كاشف الشيخُ الأديب علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفْسَهُ مع معضلة التسويف والتأجيل في مقالة جميلة، أورد فيها نصيحةً ثمينةً لوالده، فقال: «لقد كان أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلما أيقظني لصلاة الصبح يقول لي: «لا تتراخَ، اقفز قفزًا»! فأتراخى، وأتكاسل، ثم أتناوم فلا أَرُد، أو أردّ، ولا أقوم، حتى يملّ، فيدعني.

وأنا أعض أصابعي الآن ندَمًا لأني لم أسمع هذه الوصية: «اقفز قفزًا»، ولو أني سمعتُها، وعملتُ بها، أو لو أنه أجبرني عليها؛ لتغيرت حياتي، ولما فشلت في إعداد هذا الحديث، ولكنتُ في دنياي وفي ديني خيرًا مما أنا عليه اليوم، وأنا -إلى الآن- كلما أردت أن أقوم في الصباح أحسّ هذه الكلمة، كلمة أبي تُدوّي في أذني: «اقفز قفزًا»... إن الذي لا يقفز إلى الفريسة تَفلِت منه، ومن لا يغتنم الفرصة في وقتها لا يَجدْها، ومن لا يَضرب الحديد حاميًا لا يستطيع أن يضربه إذا بَرَد، والذي يؤجّل ما يجب عليه لا يَقدِر أن يؤدّيه كاملًا»[1].

والملاحَظ أن غالبَ الذين يؤجِّلون أعمالهم يعيشون فألًا بشكلٍ ملحوظ -فيما يخصُّ قدرتهم على الإنجاز، وأنهم مسيطرون على الوقت

(١) مع الناس (ص٥٩).

والمهام... إلخ- ثم لا يشـــعرون إلا والأعـــمال متراكمة، والإنجاز دون المطلوب بكثير، أو ربما خرج الإنجاز مشوّهًا.

والموفَّق من أنزل الأعمال والأحوال منزلتها، وبادر الفُرَص، وراعى المناسبات والأوقات، فتلك علامةُ ســـدادٍ ورشدٍ، ويُدرك بها المرءُ خيرًا كثيرًا، وبضدّه تفوتُ عليه من مقامات الكمال بحسب تفريطه وتقصيره.

المعروف الممزق

١٣/ ٧/ ١٤٣٨هـ

جاء محتاجٌ إلى أحد الأصدقاء يَعْرِضُ عليه الشـفاعة في تفريج كربته؛ فبكى صديقي! فتعجب صاحبُ الحاجة من بكائه! واعتذر إن كان سبّب له حرَجًا، فقال: بل أبكي فرحًا بفضل الله تعالى أن اختارني من بين الناس لأكون موضعًا لقضاء حاجتك!

يا لهذه النفوس الكبيرة! التي قلبت إحسانها، فجعلت الطالبَ مُحسنًا!

ولسـتُ أكتم القارئ سرًّا إن قلتُ: إنني أتنفس الفخر، وأشم أريج المروءة؛ كلما تذكرتُ هذا الموقف، وفي المقابل أشـعر بالأسـى والحزن العميق؛ كلما سـمعتُ شخصًا -ممن منّ الله عليه بقضاء حوائج الناس- يمزّق معروفه، ويبدِّد حسـنات الإحسـان بالحديثِ عنها في المجالس، وعمّن أحسن إليهم، ومَنْ الذي قابل معروفه والذي تنكّر له! وأسوأ من هذا: أن يواجِه من أحسن إليهم بمثل هذا!

إن من كمال عقل الإنسان، وتمام مروءته: أن يستقل كثيرَ المعروف من نفسـه، وأن يستكثر قليل المعروف من غيره، وأن يكمّل معروفه بإخفائه

وتعجيلـه، كما قيـل: إذا اصطنعت المعروف فاسـتره، وإذا صنع إليك فانشره، ولسان الحال يقول:

خِلٌّ إذا جئتَـه يومًـا لتســـأله

أعطاكَ ما ملكتْ كفـاه واعتذرا

يخفي صنـائعَه، واللهُ يظهـرُهـا

إنَّ الجميـلَ إذا أخفـيتَـه ظهـرا

ولا أدري هل يشـعر المانُّ بمعروفه، والمتحدّثُ به أنه أتعب نفسَـه بلا جدوى، وأذهب أجرَه، وأوصد البابَ على نفسـه؟ فإن الناس متى علموا أنه من أهل المنّ تجنّبوه! فمَنْ مَنَّ بمعروفه أسقط شكره.

ويذكر أن ابن سيرين سمع رجلًا يقول لرجل: فعلت إليك، وفعلت! فقال له: اسكت، فلا خير في المعروف إذا أُحصِي![1].

ولا دواء لهذا الداء إلا أن يستشـعر -مَـنْ أكرمه الله بنفع الخلق- أن المنّة أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا لله وحده، فالله هو المانّ عليه، إذْ استعمله في الإحسان، والمنة لله على ذلك الشخص أن سخّر له من ينفعه في دينه أو دنياه، وأن يتذكر أيضًا أن هذا عمل صالح لا يقبله الله إذا لم يكن خالصًا، فلا يطلب ممن أحسـن إليه جزاءً ولا شكورًا، كما قال الأبرارُ -جعلنا الله منهم-: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

«ومن الناس مَنْ يحسـنُ إلى غـيره ليمن عليه، أو يرد الإحسـان له بطاعتـه إليه وتعظيمه أو نفـع آخر، وقد يمنّ عليـه، فيقول: أنا فعلت بك كذا، فهذا لم يعبد الله، ولم يسـتعنه، ولا عمل لله، ولا عمل بالله، فهو

(١) أدب الدنيا والدين (ص٢٠٤).

المرائـــي! وقد أبطل الله صدقة المنّان وصدقة المرائي، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٦٤-٢٦٥][1]، «ولهذا كان المحققون للإخلاص لا يطلبون من الـــمُحْسَنِ إليه لا دعاءً ولا ثناءً ولا غير ذلك، فإنه إرادةُ جزاءٍ منه؛ فإنّ الدعاءَ نوعٌ من الجزاء على الإحســـان والإســـاءة؛ كما جاء في الحديث: «**من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه؛ فادعـــوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه**»[2]؛ ذلك ليبقى أجرهم على الله تعالى، ولا يكونوا قد اعتاضوا منه، كما كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا أرسلت إلى قوم بهدية تقول للمرسل: اسمع ما يدعون به لنا، حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا، ويبقى أجرنا على الله تعالى»[3].

اللهم، آتِ نفوســـنا تقواها، وزكها أنت خـــير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٢٩-٣٣١).

(٢) رواه أبوداود (رقم١٦٧٢)، وابن حبان (رقم٣٤٠٨)، والحاكم (رقم٢٣٦٩)، والعراقي في المغني (ص٢٦٤).

(٣) بيان التلبيس (١/ ٥٢٧).

طلاب الحلقات والتربية بالقرآن

٢١/ ٧/ ١٤٣٨هـ

كنتُ في بواكير العمر ممن تشرّف بارتياد الحلقات طالبًا، ثم درّسُت فيها بضع سنين، ثم تشرّفت من سنوات بالإشراف العام على مجمّع حلقات الجامع الذي كنتُ أخطب فيه؛ فخرجتُ من هذه التجربة بقناعة تامة: أن الحلقات في واقعها -الذي عشته طالبًا فمدرسًّا فمشرفًا- في حاجةٍ ماسةٍ إلى ما يربطهم بالقرآن عملًا وسلوكًا؛ ليحقّقوا أو يقاربوا المنهجَ الذي سار عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تربية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالقرآن، ثم ربّوا عليه التابعين، الذين اختصر منهجَهم التابعيُّ الجليل أبو عبدالرحمن السُّلَمي بقوله: حدّثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل[1]؛ فخرجت تلك الأجيالُ العظيمةُ، التي فتح الله بها القلوبَ قبل الأبدان.

(١) رواه أحمد. ط الرسالة (٣٨/ ٤٦٦) (رقم٢٣٤٨٢).

والمتأمل في واقع الحلقات وواقع طلابها يرى في كثيرٍ منهم فجوةً بينهم وبين ما ينبغي لحامل القرآن، «فأهل القرآن ينبغي أن تكون أخلاقُهم مباينة لأخلاق من سواهم»[1]، لا ليتأثروا فقط؛ بل ليُؤثّروا فيمن حولهم.

وطلابُ الحلقات جزءٌ من المجتمع الذي تأثّر بالإعلام التقليدي والجديد؛ فصار من المهم -والحال هذه- بل من الضروري أن يكون هناك تعاونٌ بين مجمعات الحلقات وبين طلاب العلم الذين فتح الله عليهم في تدريس كتاب الله، وتفسير معانيه، والتربية بآياته؛ بحيث يرتّب مع الشيخ لإقامة درسٍ في التفسير والتدبر؛ ليحقّق الغاية التي نزل لأجلها القرآن، ألا وهي: صلاحُ القلوب، وتعبيدُها لربّها، ويركّزُ على المعاني الإيمانية والتربوية والسلوكية، مع مراعاة الطبقة المخاطَبَة، فطلاب المتوسط ليسوا كطلاب الثانوية، وهؤلاء ليسوا كطلاب الجامعة، وخطاب أهل المدن ليس كخطاب أهل القرى.

ولن يجد الشيخُ عناءً في إيصال رسالته متى ما حمل الهمّ، فأسماء الله وصفاته، والقصص -وخاصة قصص الأنبياء- والحديث عن اليوم الآخر، والعبادات القلبية، وغيرها كثير، كلها ميدانٌ رحبٌ للانطلاق في تربية النشء على كتاب الله.

وسيكون لهذه الدروس أكبر الأثر بعون الله إذا التزم بها الشيخُ، وواظب الطلابُ المستهدَفون على حضورها، وتم تفعيلُ الاستفادة من الدرس بسؤالٍ أو مسابقةٍ، أو تقاريرَ ميدانيةٍ، أو غيرها من الوسائل التي

(١) قاله الآجري في (أخلاق أهل القرآن) (ص١٠٢).

تجذب الطلاب، وتحفّزهم على الانتظـام، ومِن ثَم: التفاعل الإيجابي مع هذه الدروس.

ويمكن ربطها ببثٍّ مباشر؛ لينتفع بها مَن لا يجد في بلده مَنْ يحملُ همّ الشباب وتربيتهم بكتاب الله، ومعالجة السلوكات الخاطئة من خلاله، ثم نشرها بعدُ عبر وسـائل التواصل الاجتماعي، ولَربّ درسٍ ألقاه الشيخُ في مسـجده، ولم يحضره إلا عشرون طالبًا، انتفع به آلافٌ وأضعافهم من وراء البحار، بل ما زالوا في أصلاب آبائهم! وبقدر الإخلاص وحسـن الإعداد يَعظُم الأثَر.

ومن المستحسن أن يكون هذا الدرس على شكل دورةٍ علمية طويلة المدّة نسـبيًّا -كسـنتين أو ثلاث- وتكون أهدافه ومدّته وعدد مجالسـه واضحةً للشيخ وللطلاب، بحيث تقسّم الدروس على الموضوعات التي تلبّـي الحاجات الإيمانية والتربوية لدى طلاب الحلقات، يجتهد الشـيخ في الإعداد لها، وليسـت مجرد خواطر يكتبها على ورقة صغيرة عند عتبة المسـجد، ويبثها كيفما اتفق! ويمكن وضع اختبارات يسـيرة، وجوائز محفّزة، وغيرها من الوسائل.

وإنّ سـورَ جزءِ المفصّلِ لمن خير ما يُبْدأُ به، وهدي السـلف في هذا معروف.

ختامًا، في حلقاتنا علماء كبار في أجسـام صغـار، ودعاة أفذاذ داخل أثواب صغيرة، ومجدّدون لهذا الدين لم يلبسـوا العمائم والغتر، فهنيئًا لمن كان سببًا في بنائهم وتربيتهم بالقرآن.

دموع الشوق في ليلة ختم (الشمائل)

٥/٨/١٤٣٨هـ

في ليلة بهية من ليالي العمر، يسّر الله تعالى إنهاء شرح كتاب (الشمائل المحمدية) للإمام أبي عيسى الترمذي (٢٧٩هـ) في ليلة الأحد السادس من شهر شعبان من عام ثمانية وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، في عشرة مجالس متفرقة، كل مجلس منها يمتدّ نحو أربع ساعات، وكانت ليلة الختام من أكثر مجالس هذا الشرح تأثرًا، لا لشيء إلا لأنها كانت تتحدث في أحد أبواب هذا الكتاب عن وفاة سيدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

لقد رأيت الدموع سخية، وسمعت النشيج والبكاء، وممن؟ من أناس أكثرهم أعاجم، امتلأت قلوبُهم حبًّا وشوقًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهنا ومن دون مقدِّمات رجعتْ بي الذاكرةُ إلى أبي لهب وبقية صناديد قريش، الذين عرفوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصِدْقَه، بل هم أعلم العرب بسيرته، ومع هذا حاربوه، وآذوه، وطردوه من بلده -وما أشدها على النفس!- فكيف إذا كان هذا البلد الذي يضطر الإنسانَ إلى الخروج منه هو مكة المكرمة!

ثم إذا بك ترى أناسًا من السعودية وأوروبا وباكستان والهند ومصر واليمن والشام -ممن حضروا هذه المجالس- تذرف دموعُهم وهم يسمعون خبر وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد أحبّوه أكثرَ مِن حِبّهم لآبائهم وأمهاتهم، وهم لم يروه، وإني لأرجو أن يكون لهم نصيبٌ من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أشد أمتي لي حبًّا، ناسٌ يكونون بعدي، يودّ أحدُهم لو رآني بأهله وماله**»[1].

ولقد أعجبني قولُ أحد الطلاب معلقًا -بعد انتهاء هذه المجالس-: لقد كشف لنا الكتابُ مساحةً كبيرةً كانت غائبة عنا من السيرة النبوية التي غالبًا ما يقتصر تدريسُها على الجانب العسكري منها -الغزوات والسرايا-، فعرفنا صفتَه الخَلقية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرفنا شيئًا من: زهده، ولباسه، ومتاعه، وضحكه، وبكائه، ونومه ويقظته، وعبادته، ومزاحه، وخُلُقه، وتواضعه، وحيائه، وصمته وكلامه، ومشيته، واتكائه... إلخ ما بوّب عليه الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وثمة معنى آخر تكشفه لنا أمثال هذه الكتب، وهو هذا الوصف الدقيق المدهش لحركاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسكناته، حتى إنه ليخيل لك -وأنت تقرأ الروايات- أنك أمام بثّ حيّ ليومه النبوي، بل لحياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! حتى عدد شعراته البيض في لحيته الشريفة نُقلت لنا! أيُّ نبي فضلًا عن غيره اعتنى أتباعُه به كما اعتنى أصحابُ محمدٍ بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟! ثم يأتي لُكَعُ بن لكع[2] ليقول لنا: إن السنة لم تُحفظ! وضاع منها ما ضاع!

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٨٣٢).

(٢) اللُّكَعُ، كصُرَدٍ: اللئيمُ، والعبدُ، والأحمقُ. القاموس المحيط (ص٧٦١).

ولــو كان لي من الأمــر شيء لجعلتُ في كل بلدٍ من يشرح الشــمائل المحمديــة، أو أيّ كتاب مناســب في الســيرة النبويــة؛ ويقرّبها لعموم المسلمين؛ ليزداد مســتمعُ الدرس شوقًا وحبًّا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحرّك فيــه دواعي الاتباع الظاهــر والباطن، والرغبــة في نصرة دينه، والدعوة إليه كلٌّ بحسب استطاعته.

هنــا نقدّم للناس قــدوةً لا كالقــدوات: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، حُبّهُ عبادة، وتذاكرُ سيرته علمٌ وقُرْبةٌ، وسنختصر بمثل هذه الدروس طرائق في التربية والإصلاح لأبنائنا ومن يحضر أمثالَ هذه المجالس.

أســأل الله الذي منّ علينا باتباع دينه ومحبة ســنته دون أن نسأله؛ أن يمنّ علينا بالثبات عليها، ونحن نسأله، وأن يرزقنا صدقَ الاتباع ظاهرًا وباطنًا، وأن يميتنا على ســنته، ويوردنا حوضَه، ويُدخلنا في شــفاعته، ويحشرنا في زمرته، مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

المراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان. لابن حبان البُستي. ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى ٧٣٩هـ). حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط. نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢. الاعْتِصَام. للشاطبي. تحقيق ودراسة: الجزء الأول: د. محمد بن عبدالرحمن الشقير، الجزء الثاني: د سعد بن عبدالله آل حميد، الجزء الثالث: د. هشام بن إسماعيل الصيني. نشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٣. إكمال المعلم بفوائد مسلم. للقاضي عياض. تحقيق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل. الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر. الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٤. شعب الإيمان. للبيهقي. حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبدالعلي عبدالحميد حامد. أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية

ببومباي - الهند. نشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند. الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٥. الشكر. لابن أبي الدنيا. تحقيق: بدر البدر. نشر: المكتب الإسلامي-الكويت. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٦. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم. نشوان الحميرى. تحقيق: د. حسين بن عبدالله العمري -مطهر بن علي الإرياني- د يوسف محمد عبدالله. الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت-لبنان)، دار الفكر (دمشق-سورية). الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٧. صحيح ابن خزيمة. لأبي بكر ابن خزيمة. تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي. نشر: المكتب الإسلامي- بيروت.

٨. صحيح البخاري. المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. نشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي).

٩. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٠. الصداقة والصديق. لأبي حيان التوحيدي. تحقيق: الدكتور إبراهيم الكيلاني. نشر: دار الفكر المعاصر-بيروت-لبنان، دار الفكر-دمشق-سورية. الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١١. صيد الخاطر. لابن الجوزي. بعناية: حسن المساحي سويدان. نشر: دار القلم- دمشق. الطبعة: الأولى. ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٢. الغنية عن الكلام وأهله. للخطابي. نشر: دار المنهاج- القاهرة. الطبعة: الأولى ١٤٢٥هـ.

١٣. الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة. للشوكاني. تحقيق: عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني. نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٤. القاموس المحيط. للفيروزآبادي. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. نشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان. الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٥. الكفاية في علم الرواية. للخطيب البغدادي. تحقيق: أبو عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني. نشر: المكتبة العلمية-المدينة المنورة.

١٦. مجموع الفتاوى. لابن تيمية الحراني. تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم. نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٧. المخصص. لابن سيده. تحقيق: خليل إبراهم جفال. الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. لابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. نشر: دار الكتاب العربي- بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل. لأحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرناؤوط-عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي. نشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. للفيومي. نشر: المكتبة العلمية-بيروت.

٢١. مع الناس. لعلي الطنطاوي. راجعه وصححه وعلق عليه: حفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية. نشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة-المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثامنة، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٢٢. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار. للذهبي. نشر: دار الكتب العلمية. الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٣. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين). لزين الدين العراقي. نشر: دار ابن حزم، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٤. مناقب الإمام أحمد. لابن الجوزي. تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي. نشر: دار هجر. الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ.

٢٥. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. للإمام النووي. نشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت. الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

٢٦. نكث الهميان في نكت العميان. للصفدي. علق عليه ووضع حواشيه: مصطفى عبدالقادر عطا. نشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٢٧. النهاية في غريب الحديث والأثر. لابن الأثير. نشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي.

٢٨. الوابل الصيب من الكلم الطيب. لابن قيم الجوزية. تحقيق: سيد إبراهيم. نشر: دار الحديث- القاهرة. رقم الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

٢٩. الورع. لابن أبي الدنيا (المتوفى ٢٨١هـ). تحقيق: أبي عبدالله محمد ابن حمد الحمود. نشر: الدار السلفية- الكويت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨م.

فهرس الموضوعات والفوائد

١. **ذكّرونا بمثل هؤلاء الكلمات** ٦
- مواعظ قيمة سمعتها في رحلة الحج هذا العام ١٤٣٦هـ.
- هذا النوع من الوعظ هو المطلوب لإصلاح القلوب.

٢. **أُم مِلْدَم... وزيارة نهاية العام** ٩
- لماذا لا تتوارد هذه المعاني عند أكثر الناس إلا عند فقد أضدادها؟
- وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عمر وكيف استفاد منها.
- أُصيب بشلل رباعي يتمنى ثلاث أمنيات!

٣. **عام جديد... ومعركة تتجدد** ١٢
- ما الأمر الملاحَظ في هذه المعركة؟
- من أسباب تأجيج هذا العراك العلمي.
- هذا من النصح للأمة في هذه المعركة.

٤. **مؤتمر (تدبُّر) العالمي الثاني... والرؤية المستقبلية** ١٥
- المؤتمر الثاني العالمي لتدبر القرآن الكريم يحقق أهدافه.
- ما الجدوى مِن أمثال هذه المؤتمرات؟
- ضرورة انتقال مشروعات تدبّر من ساحة التنظير -الذي أُشبع بحثًا- إلى ميدان التطبيق.

٥. **سفراء من نوع آخر** ١٨
- ضرورة الاهتمام بالطلاب الوافدين.
- الحرص على البرامج المصاحبة لدراسة الطلاب الوافدين.
- مِن أهمّ ما يجب غرسُه في نفوس الطلاب الوافدين.

٦. **خطاكم يا أهيل الجامعات!** ٢٢
- طلاب الجامعة واحتساب الأجر.
- ابن الجوزي يحث على احتساب الأجر.
- المدرس واحتساب الأجر.

٧. **المغرد الملثم** ٢٥
- من المغرد الملثم؟
- مما يُنقم على المغرد الملثم.
- أين يذهب هؤلاء المتسترون من صُحُف الكرام الكاتبين؟!
- رسالة لعقلاء التواصل الاجتماعي ووصية للمغرد الملثم.

٨. **وما أنا من المتكلفين** ٢٨
- حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البعيدة عن التكلف.
- من شؤم خُلُق التكلف الذي يتدثر به بعضُ المنتسبين للعلم.
- من أشدّ صور هذا التكلّف بؤسًا وجفافًا.
- قصة ابن عقيل مع الموسوس.

٩. **في بيتنا معوق** ٣٢
- قصة أبي بكر الضرير.
- اختيار الله للعبد خير من اختياره لنفسه.
- من منح الابتلاءات.

١٠. **إلى أحبتي مدرسي الحلقات (ج١)** ٣٥
- أول أهم ما ينبغي على معلم القرآن استحضاره وعمله.
- الزاد العلمي والإيماني لمعلم القرآن.

١١. **إلى أحبتي مدرسي الحلقات (ج ٢)** ٣٨
- من أهم ما ينبغي أن يتزوّد به معلّم القرآن.
- نماذج من صبر معلمي القرآن من السلف.
- من الأرباح الحقيقية لمدرس القرآن.

١٢. **إلى أحبتي مدرسي الحلقات (ج٣)** ٤٢
- استوقفتني كثيرًا مقولة الأبّار في ترجمة أحد المقرئين.
- من أهمّ المعاني التي ينبغي لمدرس القرآن استصحابها في مسيره.
- ضع بصمتك في طلابك أيها المدرس.

١٣. إلى أحبتي مدرسي الحلقات (ج٤) ٤٥
- من الطرق التي تجعل وسائل التواصل عونًا للمدرس على تحقيق مقصوده.
- رؤية بعض المعاصي الظاهرة على بعض الطلاب مسألة شائكة! كيف يتعامل معها؟

١٤. كنوزُ ما بين الأذانين ٤٩
- عبارة مؤثرة من عامي لابنه طالب العلم.
- من الفضائل العظيمة لاستغلال ما بين الأذانين.

١٥. وهن الانقياد ٥٢
- مِن أجمل العبارات التي استوقفتني في التعبير عن المشوّشات على العبد.
- ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكشف سر الوهن الذي يصيب بعض الناس.
- الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبين الفرق بين المبتدع وغيره.

١٦. العافية ٥٦
- من النصوص النبوية التي تحث على سؤال الله العافية.
- الإمام الخطابي يجلي حال أهل الغرور العلمي بوصف دقيق.

١٧. لله درك يا نزار! ٦٠
- قصة نزار مع برنامج فتاوى.
- هذا ما استخلصته بعد سماعي لمقطع نزار.

١٨. من أرشيف الجوال ٦٣
- المؤْذُون يعلموننا الصبر.
- من صور إيذاء المستفتين للمفتين.
- من الرسائل التي لا يزال صداها في ذهني.

١٩. في غرفة العناية المركزة ٦٦
- ما الذي يجول في صدور نُزلاء هذه الغرَف من العِبَر والوصايا لزوّارهم؟
- زيارة هذه الغرفة تكشف لك عن أثر الصلة بالله حال الرخاء.
- من آثار الرضا التي تَلمحها في حال بعض أولئك المرضى.

٢٠. في غرفة تغسيل الموتى ٦٩
- ماذا سيتوارد لذهنك وأنت تغسل ميتًا؟
- غرفة تغسيل الموتى تنادي!

٢١. على شفير القبر ٧٢
- ماذا يرى زائر المقبرة فيها من العبر؟
- مَن يحضر هذه الشعيرةَ مشاركًا في الصلاة واتباع الجنازة، يلفت نظره بعضُ الملاحظات.

٢٢. في مجلس العزاء ٧٥
- التعزيةُ هي صورةٌ من صور الترابط بين أفراد المجتمع المسلم.
- تنبيهات في موضوع التعزية.

٢٣. من مسجد الطين إلى الدرس العالمي ٧٨
- من جلَد الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التدريس.
- اندهاش العلماء بما يُعرف بالبث المباشر للدروس والفعاليات العلمية أول ظهوه.
- المنصَّات التعليمية تكتسب قوتها من ثلاثة أمور.
- مما تجدر العناية به -في حديثنا عن عالمية الدرس-.

٢٤. وداعًا خالد ٨٢
- ذكريات جميلة لأخي خالد ما زالت تمر ببالي.
- عرضت عليه أموال كثيرة رشوة فماذا صنع بها؟

٢٥. الموقف الخبّابي ٨٦
- رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يواسي خبابًا وهما في ظل الكعبة.
- شاهدان من شواهد التاريخ من العلماء المتفائلين.

٢٦. بل هو خطأ ٩٠
- مشكلة: رأيي صوابٌ لا يحتمل الخطأ!
- جهلُ المتحدث بالخلاف.

- من العقل والحكمة أن يكون الإنسانُ واسع الأفق.

٢٧. النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والعمر الإنتاجي ٩٣
- من التوجيهات المشهورة الراجحة في معنى: (وينسأ له في أثره).
- النووي نموذج رائع على الشخصية العلمية الباذلة.
- دراسة الشخصيات المميزة بالبذل العلمي محفز لاستغلال ساعات العمر.
- مما يحسن التنبيه عليه في موضوع استغلال العمر.
- العزم في نفع الأمة.

٢٨. كيف تخسر الأصدقاء؟ ٩٧
- من الناس مَنْ لا يُقدّر هذه العلاقة قدْرها.
- بعض الأسباب التي يخسر بها بعضُ الناس أصدقاءَهم.

٢٩. الفتوى بين المفتي وناقلها ليلة النصف من شعبان نموذجًا ١٠١
- منشأ الغلط عند المقلدين.
- مسألة: حكم إحياء ليلة النصف من شعبان.

٣٠. مجالس مع أبي خيثمة ١٠٤
- الدورات العلمية.
- من أكبر المشكلات التي تواجه طلاب العلم اليوم.
- من أعظم أسباب الخلل القائمة عند طلاب العلم اليوم.
- مذهب أهل الكوفة في تحديدهم للسنّ الأفضل للطلب والرحلة في سماع الحديث.
- من الظلم والإجحاف: الانتسابُ إلى السلف في بابٍ وترك أبواب عدّة!

٣١. استراحة قلم ١٠٨
- التوقف والمراجعة ضروري لكل كاتب أو مقدِّمٍ لبرنامج إعلامي.
- المقال أشبه ما يكون بالمولود يمرُّ بأطوار عدّة!

٣٢. حسرات من نوع آخر ١١٠

- زيارتي للشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- عبدالله بن حامد الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والتعبير عن أسَفه على فوات لقاء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- ممن فاتهم اللقاء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أيام من وفاته.
- من الأماني التي سطّرها جمعٌ من العلماء في أواخر أعمارهم على التقصير في تدبر كتاب الله.

٣٣. بين الإنسان والشجرة ١١٤
- من القواسم المشتركة بيننا وبين الشجرة.
- تقاس حياة الإنسان بمساحة تأثيره في هذه الحياة.
- القاسم المشترك بين المسلم والنخلة.

٣٤. أم يعقوب ونساء القدوات ١١٧
- لنساء القُدوات شأن آخر غير النساء الأُخريات، لا من ناحية الأحكام الشرعية.
- نساء القدوات ومشكلة التساهل ببعض الأخطاء.
- عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يحذر أهله من مخالفة ما نهى عنه الناس.

٣٥. المستشرفون ١٢٠
- كل حركة غير مشروعة في الفتن يصل من الشر إلى المتحرك فيها بمقدار حركته منها.
- أصعب الحالات التي يمرّ بها قلب المسلم.
- ولا خير -والله- في معرفةٍ تورث شكًّا، ولا في فكْرٍ يورث كُفْرًا.

٣٦. ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومركزية الأخلاق ١٢٤
- بمَ نال الشخ هذه المنزلة العظيمة؟
- من الجوانب التي تتجدد الحاجةُ للتذكير بها في واقعنا اليوم.
- الدعاة وحسن الخلق.
- صورتان من صور بذل علماء هذه الأمة.

٣٧. اخلع نظارة اليأس ١٢٨
- القرآنُ صريحٌ جدًّا في التحذير من اليأس والقنوط.

- كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الفأل.
- قارِن بين النفوس الغارقة في اليأس وبين قول مُوَرِّق العجلي رَحِمَهُ اللَّهُ.
- من شؤم التشاؤم.
- ما الفرق بينك أيها اليائس وبين السعداء؟

٣٨. مَنْ قال: إنك لا تكسب؟! ١٣٢
- تذمّر بعض الطلاب والدعاة من الواقع، والتكدرُ من مخرجات الدعوة.
- من القواعد القرآنية المحكمة في باب الدعوة.
- ما دام سبق في علم الله أنه لن يؤمن مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا القليل، فلمَ بقي كل هذه المدة؟
- من مكاسب الدعاة التي قد لا يراها الكثير منهم!
- الثبات على الدعوةِ هو في نفسه دعوة.

٣٩. هموم وشجون حول بحوث الترقية (١/ ٢) ١٣٨
- (المنكَر العلميّ) في ضعف الفحص، والتساهل في إجازة البحوث.
- من مهمَّة إخواننا أعضاء هيئة التحرير في المجلات العلمية ونحوها.
- من السبل والوسائل الرادعة عن السرقات العلمية.

٤٠. هموم حول بحوث الترقية (٢/ ٢) ١٤٣
- بعض الأمثلة من بحثٍ واحدٍ وردت فيه عشرات الأخطاء والأوهام.
- ثمَّة مَن يُبالغ في معايير الإضافة للتخصص، والتميز في البحث، مع أنها مسألة نِسبية.
- نموذج لاختلاف نظر فاحِصَين لكتاب واحد.
- الاعتدال والرفق هو المطلوب من الفاحص.
- أخطرُ شيءٍ في هذا الباب -الذي يجب الحذرُ منه-: دخولُ الهوى في الفحص.

٤١. على عتبات مدرسة الإمام الخطابي (١/ ٢) ١٤٨
- من تصانيف الخطابي الدالة على تبحّره.
- الخطابي والدراسات السابقة.
- العلم من المحبرة إلى المقبرة.

- مقاصد التصنيف عند الخطابي.

٤٢. على عتبات مدرسة الإمام الخطابي (٢/٢) **١٥١**

- الاعتذار للسابق.
- مراكمة الكتب.
- طبعة مزيدة ومنقّحة.

٤٣. مناسبات غير مؤجلة **١٥٥**

- قصة عبارة: الموت ليس له موعد مسبَق.
- الشيخُ الأديب علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكاشف نفْسَهُ مع معضلة التسويف.
- الملاحَظ على غالبَ الذين يؤجِّلون أعمالهم.

٤٤. المعروف الممزق **١٥٨**

- إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا صنع إليك فانشره.
- دواءٌ لداء المنّ.

٤٥. طلاب الحلقات والتربية بالقرآن **١٦١**

- الحلقات في واقعها -الذي عشته طالبًا فمدرسًّا فمشرفًا- في حاجةٍ ماسة إلى ما يربطهم بالقرآن عملًا وسلوكًا.
- الغاية التي نزل لأجلها القرآن.
- درس في التفسير والتدبر لطلاب الحلقات.

٤٦. دموع الشوق في ليلة ختم (الشمائل) **١٦٤**

- ماذا سيقول أبولهب لو رأى هذا المنظر؟!
- مما تكشفه لنا كتب: الشمائل المحمدية.

٤٧. المراجع **١٧١**

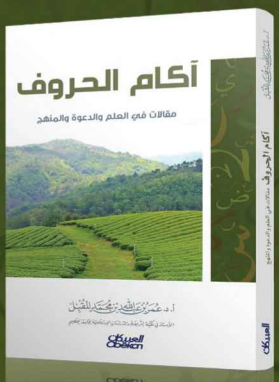

حينما تجتمع الأحرفُ لتشكّل كلمات، والكلماتُ لتشكل جُمَلاً يأخذ بعضها برقاب بعض، فترسمَ صورةَ فكرةٍ في مقالة، فإن كاتبها يأملُ أن يصل مع قارئها إلى قمة الفكرة المرسومة بأحرف.. وهناك تلتقي الحروف مع الأفكار على الآكام المرتفعة.. لتشكّل «آكام الحروف».

ISBN: 9786030271511
9 786030 271511
- الدعوة الإسلامية
تلهم المعرفة
Inspiring Knowledge
Obeikan Reader
@ObeikanPub
العبيكان للنشر
Obeikan Publishing